الجـــــزائر

مشعل النضـــال العربى

تأليف

عيسى عبد الرزاق القحطانى

الطبعة الأولى

١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م

الشركة الاسلامية للطباعة والنشر المحدودة - بغداد : تلفون ٥٩٤٥

الجـــزائر

مشعل النضـــال العربي

تأليف

عيسى عبد الرزاق القحطاني

الطبعة الأولى

١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م

الشركة الاسلامية للطباعة والنشر المحدودة ـ بغداد : تلفون ٥٩٤٥

الاهداء

إلى مجاهدي الجزائر الأحرار . . .

وإلى أرواح شهدائهم الأبرار . .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يحد بلاد الجزائر البحر الأبيض المتوسط شمالا والصحراء الكبرى جنوبا حيث تقع بلاد الهجار موطن عشائر الطوارق البواسل ، يحدها شرقا أراضي تونس الخضراء وصحراء ليبيا كما تمتد حدودها الغربية إلى مراكش وافريقيا الاستوائية والجزائر هي (القلب) بالنسبة إلى الجناحين تونس ومراكش فى المغرب العربى. وتبلغ مساحتها نحو مليونين وربع مليون كيلومتر ، وهذه حدود بلاد الجزائر منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، فهى حدود عريقة فى القدم.

وهي على هذا الاعتبار تعد من أوسع أقطار الشرق الأدنى بل انها أكثر سعة من بعض الأقطار الأوربية ، إذ أن مساحتها نحو أربعة أمثال مساحة فرنسا وأكبر من ثلثى مساحة الجمهورية المصرية ، وأزيد من أربعة أمثال مساحة سوريا والعراق ، وتعدل مساحة سويسرا ستين مرة ويكوّن القطر الجزائري مع تونس ومراكش وحدة جغرافية وعنصرية ودينية وتاريخية ، فطبيعة أرضهم واحدة ، وأصلهم واحد منحدر من يمنى أو مضري أو خليط منهما ، نزحوا إلى هذه الأقطار إبان الفتح العربى ، فارتبطت منذ القدم مصالحهم، وقربت بينهم وحدة الآمال والآلام ، كان أهل الجزائر وأبناء عمومتهم التونسيون والمراكشيون يدينون بالوثنية سابقاً ، ثم اعتنقوا المسيحية لما ظهرت، ولما انبثق نور الاسلام تغلغل فى قلوبهم واستقر استقراراً راسخاً ، فاذا هو عقيدة ودين وقومية ، فعلى الرغم من تعاقب الغزو الأجنبي على الجزائر قبل

الاسلام لم تتغير طبيعة أهلها ، حتى إن الاحتلال الروماني الذي دام ستة قرون لم يؤثر في شخصيتها ونفسيتها ، فلم يبق من آثار روما وسلطانها في المغرب العربي بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة، إلاّ تلك الصخور المنحوتة التي تصور لناظرها مدى المحنة التي احتملها فلاحو البلاد صابرين مستمسكين بتراثهم وتقاليدهم، وهي دلائل واضحة على صلابة الفلاح الجزائري الذي يقف ثابتاً في وجه الأعاصير محتفظاً بشخصيته ، معتزاً بقوميته ، متربصاً بأعداء بلاده حتى تحين الساعة المنتظرة فيجتث جذورهم ويقذف بهم خارج الحدود . والقطر الجزائري من حيث عدد السكان - بملايينه الأحد عشر من العرب والدخلاء عليهم - ثالث الأقطار العربية شرقا وغربا. والجزائر بلاد زراعية، تنتج كميات وفيرة من الحبوب ، إذ تبلغ مساحة زروع منها سبعة ملايين من الأفدنة هذا بالاضافة إلى مليون فدان من الكروم، إلى مزارع الزيتون والبقول والنخيل وأنواع الفاكهة والغابات والخلاصة إن مجموع الأراضي المزروعة يبلغ حسب الاحصائيات الأخيرة نحو ٢٠ مليون هكتار، أي نحو ٥٠ مليون من الأفدنة. من هذه الأراضي لايستغل الجزائريون إلا ٧٦٦٠٠ هكتاراً ، اما الأوربيون فيستغلون ٧٢٢٠٠٠ هكتاراً ومعنى هذا أن سبع السكان يستغلون أرضاً تبلغ على وجه التقريب ٢/٥ ما يستغله الجزائريون .

تصدر الجزائر سنوياً أكثر من مليوني قنطار من الحلفا ، وتصدر مليون رأس من الأغنام ، وتنتج ربع ما ينتجه العالم بأجمعه من الفلين ، أما الثروة المعدنية فتشمل الفحم والحديد والرصاص والزنك والنحاس والمنجنيز والفوسفات والكبريت والبترول وغير ذلك مما تزخر به أرض الجزائر الغنية وتتسابق الشركات الأجنبية لاستغلاله واحتكاره . فالجزائر من حيث الموارد الطبيعية والثروة الزراعية والمعدنية والحيوانية ، جنة من جنة الأرض ، يتمتع بها الدخلاء والمستعمرون ويحرم من خيراتها الوفيرة أصحابها الشرعيون .

وتعتبر بلاد الجزائر منطقة سياحية من الطراز الأول ، لا تجد فرقا بينها وبين سويسرا ، بل إن مناطق الغابات والجبال فيها تفوق أمثالها في سويسرا روعة وجمالا . بهذه الطبيعة الغنية الخصبة ، السهلة الوعرة ، الشديدة اللينة ، تأثرت نفسية الشعب الجزائري على نحو ما يتأثر كل كائن حي بعوامل البيئة الطبيعية التى تكتنفه . واذا أضفنا الى ذلك تلك الأحداث التى تعاقبت منذ فجر التاريخ على القطر الجزائري ، أمكننا أن ندرك ماهية النفسية الجزائرية على حقيقتها ، وعرفنا سر تلك المقاومة العنيفة التي يبديها الجزائريون فى وجه الغزاة المعتدين ذوداً عن الوطن وصوناً لأمجادهم ، وتمسكا بتراث أجدادهم . والاستعمار هو أشد نكبة تصاب بها الأمم لكنه على فظاعته وبربريته أنواع ، على أن أخبث أنواعه وأشدها فظاعة وأعظمها خطراً على قوميات الشعوب ومصائرها هو الاستعمار الفرنسي الغاشم ، الذي فاق فى وحشيته التتار لأنه استعمار لا يعرف للحق ولا للعدل الا ولا ذمة ويعتمد فى تثبيت دعائمه على النار والدم والحديد ، والنهب والاجرام والابادة والافناء .

الجزائر والتاريخ

ان للجزائر بل ولشمال افريقيا الجغرافي كله، ظروف تاريخية متشابهة منذ أقدم العصور ، إذ امتزج تاريخها بتاريخ الفينقيين ، والقرطاجيين والرومان القدماء ، ثم كان الفتح العربي الذي بدأ خطاه في هذه البلاد سنة ٢٢ بعد الهجرة ، فحدد لها قوميتها العربية التي توصف بهـا منذ ثلاثة عشر قرناً ، فصارت لذلك التاريخ بلاداً اسلامية ، عربية القلب والدم واللسان ، لا يفرق بينها وبين غيرها من الأقطار العربية المسلمة إلا الفوارق الطبيعية العادية في البيئة والمناخ ، إن الاسلام بروحه العامة لم يكن بعيـداً عن الفطرة البدوية للسكان الأصليين في هذه البلاد ، لهذا لم يلبث أهل البلاد ان اعتنقوه بايمان واطمئنان ، واعتبروا أنفسهم منذ عهد الفتح ، جزءاً من الشعب العربي المسلم الذي يستظل براية القرآن .

إن القارىء لتاريخ هذه البلاد القديم ، ليدهش أشـد الدهشة حين يطالع صور المقاومة العنيفة التي كان يلقاها كل فاتح أجنبي لهذه البلاد فلا يكاد يستقر له فيها قدم أو ترسخ قواعد أو يترك أثراً يذكر ، إلا هيا كل مبنيـة ومظاهر عمرانية سرعان ما ينالها البلى والاندثار ، ثم يرى إلى جانب ذلك كيف استطاعت قلة من المسلمين أن تصبغ هذه الأقطار الشاسعة بدينها وقوميتها ، فاذا دينها دين العرب ، ولغتهم لغتها ، وعواطفهم عواطفها ، فقد

امتزج الدم واتصل العرق واشتبك النسب ، وارتبطت القلوب بالقلوب وتوحدت العواطف والآمال ، فلا يمضي نصف قرن بعد الفتح حتى يكون قائد جيش العرب الذي يغزو شبه جزيرة إيبريا على الساحل الأوربي — مغربياً من أبناء البربر ، سكان البلاد الأولين، هو طارق بن زياد ، ويذكره التاريخ باسمه وصفته ونسبه وأبوته تحت عنوان (فتح العرب لاسبانيا) وما فتحها إلا طارق بن زياد المغربي ، فهو الاعتراف إذن بأن كل مغربي عربي منذ ذلك التاريخ أي منذ ثلاثة عشر قرناً، لأن المغرب قطر من أقطار الدولة العربية المسلمة ، ليس بين أهله غريب عن هذه القومية العامة التي تنتظم كل المسلمين والعرب في شتى أقطار المعمورة . كان أول من وطأ أرض هـــذه البلاد من الفاتحين العرب ، هو عقبة بن نافع الفهري ، فأظل الأقطار الثلاثة برايته حتى بلغ شاطىء المحيط الأطلسي، فاقتحم الماء بقوائم فرسه وهويقول: « اللهم رب محمد ، لولا أني لا أعلم وراء هذا البحر يابسة لاقتحمت بفرسي هذا الهول المائج ، لأنشر اسمك العظيم في أقصى بقاع الأرض ! » .

لقد صدق عقبة فلو كان يعلم وقتئذ ان وراء هذا المحيط الأطلسي أرضاً أخرى لركب اليها ظهر الماء حتى يبلغ أمريكا . . . ولـكنه لم يكن يعلم ، إذ كانت مراكش ، أو ساحلها الغربي ، هي آخر الدنيا يؤمئذ في الجغرافيـــا القديمة ، عند العرب وغير العرب على السواء . وأسس عقبة بن نافع مدينة القيروان — في تونس — وجعلها عاصمة الشمال الأفريقي الجديدة ، فهي مقر الحـكم وكرسي الأمارة ومصدر السلطة في أقطار المغرب العربي الثلاثة

باسم الخليفة العربي في دمشق . بعد ردح من الزمن أصبحت شبه جزيرة ايبريا — اسبانيا والبرتغال — جزءاً من الوحدة العربية في شمال أفريقيا ، بعد أن افتتحها طارق بن زياد ، فصارت أقطار المغرب أربعـــة ، هي : تونس ، والجزائر ، ومراكش ، والأندلس.

وظل الفتح العربي بعد ذلك يمتد ، على أيدي المشارقة والمغاربة جميعاً ، حتى بسط الاسلام ظله على جنوب فرنسا ، في الوقت الذي كانت فيه جيوش عربية أخرى تقرع أبواب القسطنطينية في المشرق ، بقيادة مسلمة بن عبدالملك ولوسارت الأمور يومئذ الى غاياتها ، لا لتقى فكا الكماشة العربية في الأرض الكبيرة ، أرض إفرنسة ورومية ، كما كان يسميها العرب في ذلك الزمن .

ولم يزل أمراء القيروان ، الذين يعينهم الخليفة في دمشق ، هم الحكام لشمال افريقيا وللأندلس ، حتى انتهت دولة بني أمية وانتقلت الخلافة إلى العباسيين ، فوثب إلى الأندلس أمير من بني مروان ، هو عبدالرحمن الداخل فاستقل بها ، واتخذ له جيشاً وعرشاً وراية ، هذا مع العلم ان أم عبدالرحمن الداخل الاموي كانت مغربية من بنات البربر . وحذت مراكش حذو الأندلس ، فاستقل بها أمير آخر من بني هاشم ، هو ادريس بن عبـــدالله ابن الحسن ، وكان — مثل ابن عمه عبدالرحمن الداخل — يمت برحم إلى البربر . ثم كانت دولة الفاطميين ، التي لم تلبث ان نقلت عاصمتها من المهدية في تونس إلى القاهرة . ثم كانت دولة بني باديس الصنهاجيين ، التي غلبت الفاطميين على ما كان تحت أيديهم من بلاد المغرب ، بعدان رحلوا إلى

مصر . ثم تتابعت الحكومات العربية المستقلة في شمال أفريقيا ، فكانت حكومة الملثمين من بني تاشفين في مراكش والأندلس ، ثم حكومة الموحدين من بني عبدالمؤمن ، وهما حكومتان مغربيتان لحماً ودماً ، ثم عاد الحكم إلى العلويين، واليهم تنتسب الأسرة الحاكمة حتى اليوم في مراكش والتي آخر ملوكها الشرعيين ، سيدي محمد بن يوسف الحر الأبي حفظه الله ورعاه . ولما غزا الاتراك العثمانيون مصر في مطلع القرن السادس عشر، امتد سلطانهم حتى شمل ليبيا وتونس والجزائر ، وظلت مراكش محتفظة باستقلالها تحت حكم العلويين . ولكن أقطار المغرب الثلاثة على اختلاف الحكومات ، وتوالي القرون ، ظلت محتفظة بخصائصها ومقومات شخصيتها القومية . كان أول الشر بين مسلمي الشمال الافريقي والصليبية الأوربية ، حين حدثت المأساة الأندلسية ، وجلا المسلمون عن آخر معاقلهم في غرناطة ، فهاجر منهم من هاجر إلى أقطار المغرب وهو يحمل مفتاح داره هنالك في شمال البحر ، على أمل العودة اليها في يوم قريب ، وكانت أنباء المظالم والوحشية التي تصبها الصليبية على رؤوس إخوانهم الذين أقاموا في الأندلس راضين ، أو أحيل بينهم وبين الرحيل منها تقع موقعاً شديداً من نفوس المغاربة والأندلسيين المغتربين، إذ يرون إخواناً لهم هنالك يلقون من ألوان العذاب ما لا يطيقه البشر ولا يقره ضمير إنساني ، ومن تلك المظالم الوحشية بذرت بذور عداوة شديدة بين مسلمي الشمال الافريقي والصليبية الأوربية . ومما زادت هذه العداوة شدة وحدّة ، تلك النذر المتوالية التي كانت تتوعد

بها الصليبية العرب والمسلمين في ذلك الزمان ، والحملات الباغية التي كانت توجهها في البحر والبر إلى بلادهم ، والصيحات المنكرة التي كان ينادي بها الزعماء والسوقة ورجال الكنيسة على السواء ، فنشأت من حالة من التوجس والتربص بين الصليبيين وعرب الشمال الافريقي . على أن الأفارقة مع ذلك لم يحاولوا عدواناً ولا بغياً ولا انتقاماً ، وانما آثروا موقف الدفاع والمقاومة السلبية ، وهيأ لهم موقعهم البحري الممتاز أن يفرضوا سيادتهم على غرب البحر الأبيض المتوسط ، من مضيق جبل طارق إلى آخر حدود تونس ، فسيطر اسطولهم على مداخل البحر ومخارجه ، يمنع أن تمر سفينة صليبية إلا أن يؤذن لها ، بعد أن تدفع إتاوة مفروضة ، واعترفت الدول الأوربية مكرهة بسيادة المغاربة على ما يلي بلادهم من طرق الملاحة البحرية ، وبدت دول المغرب في تلك الحقبة من التاريخ ذات سلطان وسيادة ووضع دولي يحسب حسابه في العلاقات بين الدول . ويتجنى التاريخ الأوربي على المغاربة فيصفهم في تلك الفترة بالقرصنة ، وهو وصف لو صح — على ما قدمنا من أسبابه ، لكان اعترافا من الاوربيين بأنهم فيما يحاولون اليوم حق السيادة على بعض البحار انما يزاولون جريمة قرصنة ، كالتي يصفون بها الجزائريين والمغاربة في ذلك الزمن . على أن مأساة الاندلس وما اعقبها من نتائج ، لم تكن هي كل السبب فيما نشأ من أسباب الخصام بين الغاربة وأوربا الصليبية ، فهناك عامل آخر نشأ قبل ذلك بزمن غير قليل ، ذلك حين أخفقت الحروب الصليبية

في المشرق ، وارتد المعتدون باسم الصليب على أدبارهم مدحورين ، وأوهام الصليبية لم تزل تراودهم في يأس وتدفعهم إلى محاولات جديدة للسيطرة على الارض المقدسة وكان لويس التاسع ، ملك فرنسا ، وقائد الحملة الصليبية الخاسرة على مصر في القرن الثالث عشر ، قد ناله من الخزي والعار في وقعة المنصورة ، اذ سيق أسيراً إلى دار ابن لقمان ، فلم يفلت من محبسه الا بفدية كبيرة وعهد موثق ، على الا يحاول مرة أخرى أن يعود إلى هذه البلاد ، ولكن الملك لويس كان من التعصب بحيث خيل اليه أنه مستطيع أن يحقق حلمه البعيد ، مع المحافظة على العهد الذي عاهد عليه مصر ، فقاد حملة صليبية أخيرة إلى سواحل تونس ، يريد أن ينال من المسلمين منالا يرد عليه كرامته ويحقق أمله، ولعله قد خيل اليه انه مستطيع أن ينفذ إلى مصر وبيت المقدس من الغرب ، بعد أن عجز عن الوصول إلى ما يريد منهما عن طريق آخر ، ولكنه لم يكد يضع قدمه على أرض تونس ، حتى نالته الجائحة ، فمات قبل أن تكتحل عيناه بالأمل الذي ظل يراوده طول حياته ، وفي (قرطاجنة) من بلاد تونس كان مثواه الأخير ، وقد اعتبر الصليبيون الفرنسيون مدفنه منذ ذلك الوقت كعبة مقدسة يحجون اليها ليتبركوا حول رفاة القديس الشهيد ، الذي مات وهو يكافح باسم الصليب ، فكأنما أراد الصليبيون في فرنسا ، أن يكون مثوى لويس في تونس ، سبباً لفتح آخر في تلك البلاد يؤنسون به وحشته ، فلم يزل يراودهم الأمل من يومئذ في احتلال شمال افريقيا

حتى تم لهم ما أرادوا على وجه ما ، فاحتلوا الجزائر ، وجعلوها جزءاً من الوطن الفرنسي ، ثم وثبوا منها إلى تونس ، وفرضوا الحماية على مراكش ورفرفت الراية الفرنسية الملوثة على شمال افريقيا بأقسامه الثلاثة ... إلى حين .

الجزائر قبل الاحتلال

الجزائر قبل الاحتلال

يزعم الفرنسيون أن الجزائر لم يكن لها تاريخ يذكر قبل عام ١٨٣٠ ، وأنها لم تكن في يوم ما دولة حرة ذات سيادة ، بل كانت شعباً تسوده الفوضى والهمجية وتتحكم فيه القرصنة ، وتسوقه روح الفردية الجشعة ، بما في سمائها وفوق أرضها وفي أحشاء تربتها ، أرض فرنسية آلت إلى الدولة الأم بحق الاحتلال ووضع اليد فلا يجوز لأحد أن يتدخل في شأن من شؤونها التي هي من صميم فرنسا الداخلية . ولقد وجدت هذه الدعاية الفرنسية في الاوساط الدولية من يستمع اليها ويكاد يؤمن بها ، لذا أرى لزاما علي ، لكي اظهر فرنسا على حقيقتها ، أن استعرض بعض تاريخ الجزائر قبل ان تبتلى بسرطان الاحتلال الفرنسي عام ١٨٣٠ ، ليدرك القارىء ان الجزائر العربية المسلمة كانت قبل ان ترزأ في حريتها دولة مستقلة ذات سيادة . لست أريد الرجوع إلى الازمان السحيقة لكي ادلل على بطلان دعاوى الفرنسيين واسرافهم في تزوير الحقائق التاريخية ، بل اكتفي بتقديم فقرات قليلة من تاريخ الجزائر العربية ، تكفي لاقامة الدليل على سوء نية الفرنسيين وباطل دعواهم ، لقد عاشت الجزائر منذ الفتح الاسلامي فخوراً بقوميتها العربية ودينها الاسلام ، وشاركت في جميع الاحداث التي تعاقبت على حوض البحر المتوسط وليس ثمة من يستطيع نكران دورها الرئيسي في تأسيس الدولة الفاطمية ،

ثم دولتي المرابطين والموحدين اللتين قامت على انقاضهما الدولة الجزائرية المستقلة ذات السيادة ، حيث ازدهرت الصناعات ، وانتشرت الثقافة ، وارتقت العلوم والآداب ، الى مستوى لم تبلغه دولة أوربية في ذاك العهد ، وما زالت آثار تلك الحضـــارة قائمة في الجزائر حتى الآن ، فلا سبيل الى نكرانها . وكان اتصال الجزائر بالدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر - كاتصال سائر الاقطار العربية والاسلامية بها - اتصالا روحيـاً أكثر من أي شيء آخر ، لان الخلافة الاسلامية كانت حتى ذلك العهد مظهراً من مظاهر وحدة المسلمين ، ولان الخليفة كان يومئذ في اعتبار المسلمين رمزاً اسلامياً يمثل قوة التوجيه التي يحمل أمانتها خلفاء محمد ﷺ منذ عهد أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ومن وليهما من أبطال الدعوة الاسلامية . وفي هذا الصدد كتب البارون دي سان دينيز عن الجزائر يقول : « إن حق السيادة قد أفلت من يد سلاطين آل عثمان ليئول بجملته إلى أيدي الدايات (الولاة) وهذه الثورة شبيهة بتلك التى تخلص بها الامراء الالمان من ولائهم وخضوعهم لسلطان أباطرة الدولة الجرمانية » ويستطرد المؤلف قائلا : « ان الدايات كانوا يمارسون سلطانهم كسادة للجزائر ، لا يقبلون أي ارتباط سياسي بين بلادهم والباب العالي، بل كانوا يعلنون الحرب ويعقدون الصلح دون الرجوع إلى القسطنطينية » ويستمر المؤلف في قوله إلى أن « حقوق سيادة الباب العالي على الجزائر كانت معدومة ولا وجود لها من الناحية العملية ، ويرجع ذلك إلى اليوم الذي تقرر فيه أن يستمد الداي سلطته عن

طريق انتخاب الجيش الجزائري ، أي منذ مستهل القرن السابع عشر ،
ومن مظاهر سيادة الدولة الجزائرية واستقلالها علاقاتها الدبلوماسية بكثير
من دول أوربا وأمريكا في ذلك الوقت ، وقد وصلت أول بعثة دبلوماسية
فرنسية الى العاصمة الجزائرية خلال عام ١٥٦٣ ، وبمقتضى أول معاهدة
عقدت بين الدولتين استنجد فرانسوا الاول ملك فرنسا مرتين بالدولة
الجزائرية خلال عا ١٥٣٦ و١٥٤٣ ، طالباً من الداي أن يعاونه الاسطول
الجزائري على رد عدوان شرلكان الاسباني عن ساحل فرنسا الجنوبي .
وبمقتضى هذه المعاهدة أيضاً طلب هنري الرابع ملك فرنسا النجدة من
الدولة الجزائرية (عام ١٥٩٣) لتعينه بقواتها البحرية على تحرير مدينة
مرسيليا وشاطىء فرنسا الجنوبي من أيدي الهيجنوت والاسبان . وفوق ذلك
فقد بلغت ديون فرنسا للخزانة الجزائرية في أواخر القرن الثامن عشر رقماً
خيالياً ، بالنسبة للقيمة النقدية في ذلك العصر ، إذ تجاوزت الديون ٢٤ مليوناً
من الفرنكات الذهبية (أي نحو مليون جنيه مصري) استدانتها فرنسا
عيناً وبضائع ومواد أولية ، ولعل من أسباب العدوان الفرنسي على الاراضي
الجزائرية ، رغبتها في التخلص من تلك الديون التي كانت تبهظ كاهل
الخزانة الفرنسية وتنال من هيبتها . وقد عقدت الجزائر معاهدات مع انجلترا
وهولندا والدانمارك ومملكة البندقية ، ومنها المعاهدة التي وقعت بين الجزائر
وانجلترا في سنة ١٦٨٢ . وكانت الجزائر في طليعة الدول التي اعترفت
بالولايات المتحدة الامريكية سنة ١٧٧٦ ، وعقدت معها معاهدة صداقة عام

١٧٩٥ بناء على توصية مجلس الشيوخ الامريكي . ومن المسلم به، ان المعاهدات على اختلاف أنواعها ومراميها، لاسيما الاتفاقيات العسكرية ، لاتعقد إلا بين الدول المستقلة ذات السيادة .

وعلى هذا الاساس كانت المعاهدات المبرمة بين الدولة الجزائرية وسائر الدول ، ومن بينها فرنسا التي نكثت عهدها للشعب الجزائري المسالم. فقد كانت الجزائر إذن قبل العدوان الفرنسي ، دولة مستقلة ذات سيادة ومطلقة الحرية والنفوذ في حكم نفسها ، حرة في إدارة دفة سياستها الداخلية والخارجية وتكييف قوتها العسكرية ونظامها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي .

كيف احتل الفرنسيون الجزائر ؟

ذكرنا سابقاً الضائقة الاقتصادية التي كا تعانيها فرنسا إثر الثورة عام ١٧٨٩ ، فلما تكتلت دول أوربا في وجه نابليون ، بادر داي الجزائر فأمدها بكل ما تحتاج اليه من قروض مالية وعينية ، وكان يقدم بالوساطة في هذه الصفقات يهوديان يتمتعان بالرعوية الجزائرية ، أحدهما يدعى كوهين باكري والآخر ميشيل بوشناق . وقد تلكأت فرنسا بالوفاء ما عليها من هذه الديون ، ثم تآمرت مع اليهوديين الوسيطين ودفعت لهما بعض المال ففرا إلى باريس واستقرا بها . ومضت سنوات والحكومة الفرنسية تماطل في وفاء ما في ذمتها من ديون للجزائر ، فتزعم حيناً إن أثمان السلع التي قدر الدين على

أساسها مبالغ فيها ، وتدعي حيناً آخر أن السلطات الفرنسية لم تتسلم هذه البضائع ، وتصم أحياناً أذنيها عن المطالبة فلا تسمع ولا تجيب . ثم كان يوم ٢٧ ابريل سنة ١٨٢٧ الموافق ليلة عيد الفطر ، فذهب دوفال قنصل فرنسا بالجزائر إلى قصر الداي ليقدم فروض التهاني ، فسأله الداي : لماذا لم يتفضل ملك فرنسا شارل العاشر بالرد على الكتاب الذي أرسلته اليه ؟ فلم يكن جواب القنصل إلا أن قال في صلف وكبرياء إن مليكه لا يتنازل إلى حد الرد على داي الجزائر ! فثارت ثائرة الداي ، وكانت في يده مروحة من ريش النعام ، فأشار بها في جه القنصل وهو يصيح به أن يخرج ، فمست أطراف المروحة وجه القنصل ، وخرج من حضرة الداي صاخباً حانقاً . وكان ذلك في نظر فرنسا سبباً كافياً لتبعث إلى الجزائر بجيش جرار ، دون سابق انذار أو اعلان حرب ، في ١٩ يونية ١٨٣٠ . في ذلك اليوم نزلت جحافل فرنسا في مرسى سيدي فريج ، فأمر رجاله باخلاء الحصن حقناً للدماء ، وليشهد الضمير العالمي على الغدر الذي يبيته الفرنسيون لبلد آمن مسالم . وكان يوما تلته أيام وسنون ، وشهدت كفاح الشعب الجزائري في سبيل استرداد حرياته التي سلبها المستعمر المعتدي . ولما اشتدت المقاومة الجزائرية ، شن الاستعمار على الشعب حربا شاملة مدمرة ، أكلت الحرث والنسل ، وانطوت على ألوان من التنكيل والتعذيب ، يندى لها جبين الانسانية . وقد ورد على لسان وزير حربية فرنسا فى ذلك العهد ، انه يجب القضاء على الشعب الجزائري، أو على الاقل تشريده فى داخل البلاد ،

واحلال جاليات أوربية محله فى المدن والقرى الساحلية ، وجاء فى كتاب (المسألة المراكشية) لمؤلفين ن. دوريان وم. لو « أن غزو الجزائر قد تم بالنار وبالدماء وان مقاومة الشعب الجزائري الباسل لقوات الاحتلال ظلت سنين طويلة ، فكثيراً ما ثارت العواصف المدمرة أينما حل الجنود الفرنسيون . . » وحسبنا أن نسوق إلى القارىء فى هذا الصدد ، مقتطفات من التقرير الرسمي الذي رفعته لجنة التحقيق التي أوفدها شارل العاشر ملك فرنسا إلى الجزائر بتاريخ ٧ يوليه ١٨٣٣ ، أي بعد الاحتلال بثلاث سنوات ، فقد جاء فيه : « لو تأملنا ملياً كيف كانت قوات الاحتلال تعامل الاهالي الوطنيين ، لاتضح لنا جلياً ان مسلكها لم يكن يتنافى مع أبسط قواعد العدالة فحسب ، بل كان يتعارض كذلك مع ما يمليه العقل والحكمة ».

لقد اهدرت سلطات الاحتلال الفرنسية حقوق الشعب ، وداست مقدساته ، وسلبت حرياته وبعد ذلك راحت تطالب الامة بالاخلاد إلى السكينة والكف عن المقاومة . بل لقد ضمت السلطات الفرنسية أعيان الاوقاف الدينية إلى مصلحة الاملاك ، واعتدت على الملكية الفردية ، وصارت أموال طبقة من الشعب سبق أن بذلت لها الوعود باحترام أوضاعها القائمة . وقد دنس جنودها المساجد ، ونبشوا القبور ، وانتهكوا حرمات منازل المسلمين ، وإذا كانت ضرورات الحرب تقضي باتخاذ بعض التدابير القاسية أحياناً ، فان اللجنة ترى ان تحاط هذه التدابير بغلالة رقيقة من الرحمة تخفف من بشاعتها ، ولكن سلطات الاحتلال لم تفعل شيئاً من هذا

بل ذهبت إلى حد تعذيب افراد ثبت بعد وفاتهم انهم ابرياء ، ومع هذا حرم اعقابهم من تركات مورثيهم ، نعم قد اعيدت اليهم أملاكهم بعدذلك ولكن هل ارتدت الحياة الى من مات منهم ؟ « وقد ذبح الجنود الفرنسيون اشخاصاً يحملون جوازات مرور صادرة من سلطة الاحتلال العليا . وقضوا دفعة واحدة على جماعات وافراد لمجرد شبهات واهية حامت حولهم ، ثم اتضحت فيما بعد براءتهم ، كما اعدمت السلطات الفرنسية شيوخا من اولياء الله الصالحين ، لانهم تجرأوا على الشفاعة لمواطنيهم ، وكان على منصة القضاء رجال يمثلون العدالة الفرنسية ، ومع ذلك اصدروا احكاما باعدام هؤلاء المواطنين ، كما كان هناك رجال ممن آلوا على انفسهم نشر الحضارة والمدنية بين سكان الجزائر . ومع هذا نفذوا حكم الاعدام فى هؤلاء الشجعان - واخيراً القت سلطات الاحتلال فى السجون شيوخ قبائل ابرياء ، لانهم آووا جنوداً فرنسيين كانوا قد فروا من الخدمة ، وانعمت هذه السلطات بالاوسمة على الخونة الذين باعوا بلادهم باسم المفاوضة وجملة القول ان السلطات الفرنسية فاقت فى تصرفاتها الوحشية جرائم البرابرة الذين ذهبت قواتنا — فيما تزعم — لتحمل اليهم نور المدنية ، فكيف يجوز لنا بعد ذلك ان نشكوا من مقاومة الجزائريين للاحتلال الفرنسي ؟ » انتهى تقرير اللجنة الملكية . وفى مجلس النواب الفرنسي صرح النائب دي ساد فى جلسة ٢٨ ابريل سنة ١٩٣٤ بأن سلطات الاحتلال الفرنسية هدمت فى مدينة الجزائر وحدها ٩٠٠ بيت ، دون انذار سابق ، ودون ان تدفع أي تعويض.

لاصحاب هذه البيوت ، كما استولت على ستين مسجداً لاستخدامها في أغراض عسكرية ، وهدمت علاوة على ذلك عشرة مساجد دون أن تذكر سبباً لذلك . وأدهى من هذا ان سلطات الاحتلال انتهكت حرمات القبور فنبشتها واستخرجت منها الرمم والعظام النخرة ، بحجة البحث عن الاسلحة ، ثم اضاف النائب الفرنسي قائلا : « وكانت مدينة الجزائر محاطة بالحدائق الغناء والدور الانيقة التي يعيش فيها المترفون وذوو الثراء ، فأصبحت قاعا صفصفاً ينعق فيها البوم ، واجتيحت هذه الحدائق وقطعت اشجارها الوارفة لغير سبب الا الانتقام ، او لاستخدام اخشابها للتدفئة ، وهكذا تستصلح فرنسا الاراضي الزراعية وتعمر الخرائب في الجزائر ! » وعلى الرغم من أعمال القمع الوحشية التي لجأ اليها المستعمرون استمرت ثورة الشعب على الغزاة الغاصبين ، حتى بلغ عدد من استشهد من الجزائريين ما ينيف عن مليوني نسمة . وبعد فلن استعرض هنا الاحداث التاريخية التي توالت على الجزائر منذ وطئتها اقدام الفرنسيين . لانها ذائعة مشهورة بل اكتفي بسوق ثلاث حوادث فقط من عشرات بل مئات الحوادث . في ٦ نيسان ١٨٣٢ امر الجنرال روفيغو القائد العام للحملة الفرنسية لاحتلال الجزائر جيشه بالهجوم على قبيلة (العوفية) فصبحهم وهم نيام آمنين مطمئنين ، فقتلهم عن آخرهم ، ولم يستثن من المذبحة هذه أي طفل أو عجوز او امرأة أو شيخ . وعندما عاد الجيش الى مدينة الجزائر من هذه الحملة المشينة كان الفرسان يضعون رؤوس القتلى على اسنة الرماح » وهذه الحادثة ذكرها المسيو كريستيان في كتاب

ألفه بعنوان (لافريك فرانسيز) . والحادثة الثانية يسوقها المسيو ديوزايد فى كتابه تاريخ الجزائر (هيسوار دلا الجيري) : جرد الجنرال شانغارينى حملة على القبائل المعادية لفرنسا فى شهر اكتوبر سنة١٩٣٦ لتأديب القبائل العربية القاطنة بين قرى الاحراش وبو رقيقة وبعد ان اباد هذه القبائل عن بكرة ابيها عادت الحملة بالغنائم والاسلاب لقد باع الجيش الفرنسى مواشي العرب كلها الى قنصل الدانمارك في الجزائر اما الغنائم الاخرى فلقد عرضت للبيع في سوق باب عزون !! لقد شوهد من بين الاسلاب كمية من اساور ذهبية نسائية ، وهي لا تزال محيطة بمعصم مقطوع !!! وشاهد الناس اقراطاً ذهبية نسائية وهي ما زالت عالقة بقطع من ارانب الاذان !!! وقد تقاسم اثمان هذه الغنائم الجنود الذين ذبحوا نساء العرب . ولم يكتف البوليس الفرنسي بهذه النتيجة فقط بل أمر العرب في مساء ذلك اليوم نفسه ان ينيروا المشاعل والمصابيح امام حوانيتهم ودورهم علامة الابتهاج والسرور ! ! الحاثة الثالثة خلال الحرب العالمية الثانية اعطى الفرنسيون وعوداً ومواثيق للجزائريين على منحهم الحرية والاستقلال بعد انتهاء الحرب شريطة مساعدتهم لنيل النصر وكان لذلك ان قدم الجزائريون النفس والنفيس وبذلوا جهوداً جبارة في صد الغزو الالماني والقضاء على جيشه ولما انتهت الحرب عادت فرنسا الى كبريائها المزيف فنكثت الوعود وتنكرت للمواثيق. مما دعا هذا الشعب الجزائري الى القيام بمظاهرة سلمية في مدينة قسطنطينة يطالب بحريته فكان الرد لذلك ان انهال الجيش الفرنسي على المتظاهرين يمطرهم بوابل نيرانه

ووحشيته سقط إثرها ٤٥ الف قتيل جزائري فكانت مجزرة فظيعة لم ير العالم مثيلا لها . ان التاريخ ليسجل للجزائر المكافحة صفحات حافلة بأسباب المجد والفخار ، ملأى بألوان الكفاح والبطولة ، دفاعا عن قوميتها وأمجادها وصونا لشخصيتها التي افتن الاستعمار الفرنسي في تسخير كل ما يملك من وسائل للقضاء عليها وتشويه معالمها على الأقل .

سياسة فرنسا في الجزائر

أصدر القائد العام الجنرال بورمون مرسوما يقضي بمصادرة أملاك الجزائريين لصالح الدولة ، وأمعن في العسف والغدر ، وأمر بالاستيلاء على الاعيان الموقوفة على المساجد والخيرات فحرم بذلك عدداً كبيراً من المنتفعين فعمت من ذلك الفاقة وكثر المتسولون . وقد شهد بذلك الكاتب كريستيان الفرنسي في قوله « لقد تمت صفقات مريبة ، وطرد الجنرال كثيراً من الجزائريين من أملاكهم ، بحجة التآمر على قوات الاحتلال ، واعتدى على حرماتهم ، وسيقوا كالأنعام بغير شفقة ، ولا رحمة ، ودون ما يستر عورة نسائهم ، إلى رصيف المرسى حيث حشروا على السفن التي أبحرت بهم إلى المنفى . فمن أصل مساحة قدرها واحد وعشرون مليوناً من الهكتارات لا تدخل فيها أراضي الجنوب . ثمة ثلاثة ملايين هكتاراً يملكها في الواقع الاستعمار الخاص — الملكيات الفردية والشركات — وأكثر من سبعة ملايين هكتار تحتكرها الدولة والبلديات في شكل أملاك حكومية .

ومفهوم بالطبع ان المستعمرين قد استولوا على الأراضي الأكثر خصوبة، أراضي السهول، وعليها يمارسون الأعمال الزراعية التي تغل أكبر قدر ممكن، دون أي اهتمام بحاجات السكان الجزائريين.

اما الملاك المسلمون، فان ثلاثة أرباعهم (٣٩٠٠٠٠) يملكون بصورة وسطية، أقل من خمسة هكتارات من الأراضي لكل واحد، وهذا ما يعترف رسمياً بأنه غير كاف للمعيشة. في أول مارس ١٨٣٣، صدر مرسوم (جنتي دي بوسي) يقضي بنزع ملكية كل أرض لم يقدم صاحبها مستندات ملكية لها، خلال فترة معينة، ولما كان نظام الملكية من قبل قائماً على أساس التوارث المعروف، فنزعت بذلك المرسوم ملكية مليوني هكتار، بدون مسوغ قانوني. وكم من أراض باعها أصحابها الفرنسيون عدة مرات، ومع هذا اعترفت سلطات الاحتلال بأنهم ملاكها الشرعيون، برغم بيعها إياها. وقد انتشرت لذلك الفاقة الشديدة التي بلغت ببعض الجزائريين إلى أن يبيع قطعة من الأرض نظير لقمة تمسك الرمق، وخشية من أن تنتزعها السلطات الفرنسية من أيديهم بلا ثمن فلا ينالوا شيئاً. لهذا اعترف النائب الراديكالي موريس فيوليت الذي كان حاكماً عاماً للجزائر أثناء مناقشة جرت في الجمعية الوطنية بقوله « إن الحالة فاجعة حقاً... لقد استطعت أن أرى، كما تستطيعون أن تروا أنتم أنفسكم إذا ذهبتم إلى الجزائر، حالة البؤس التي دفعت اليها الأكثرية الساحقة من السكان هناك فثمة الأكواخ المبنية من اغصان الشجر، والغطاء المهلهل المفروش على

الأرض ، والأدوات المنزلية البدائية ولا أثاث هناك » . إن عدد العمال الزراعيين بل وعدد الملاكين الصغار الذين يهجرون مساكنهم نازحين إلى المدن ، يتزايد أكثر فأكثر ، طلباً لعمل يستحيل العثور عليه . نظراً لأنه يوجد في الجزائر في هذه الأيام مئات الألوف من العاطلين عن العمل ، وهناك عشرات الألوف ينفون أنفسهم إلى فرنسا حيث يأتون ليزيدوا عدد الـ ٧٥٠ ألف جزائري الموجودون هناك .

ان الجزائر بالنسبة إلى الرأسمالي الفرنسي مثلما كان يتمنى الجنرال جيرار عام ١٧٣٠ منبعاً « للمنتوجات الأجنبية عن أرضنا ومناخنا » فلقد صدرت الجزائر ، في العام الماضي بالاضافة إلى ٤٠٠ر٠٠٠ طن من البرتقال وسواها من الثمار ٢٠٠ر٠٠٠ر٣ طن من الحديد الخام من أصل ٣٠٠ر٠٠٠ر٣ طن استخرجت ، و ٥٦٠ر٠٠٠ طن من الفوسفات من أصل الـ ٦٠٠ر٠٠٠ طن .

وتدل هذه الأرقام على أن الجزائر لا تملك صناعة أساسية والصناعة الضعيفة القائمة ، خاضعة للشركات الفرنسية . ومن السهل ان تفهم ان الرأسماليين الفرنسيين ، سعوا وراء أقصى الأرباح ، ولم يضعوا الجزائر . مما يتيح لهم هذا نهب ثراوات الأرض الجزائرية لمصلحة صناعاتهم في فرنسا والواقع ان الجزائر تتلقى من فرنسا جميع حاجاتها تقريباً ، من السيارات والآلات والمحروقات الخ .. كما ان أكثر من ٧٠ بالمائة من تجارة الجزائر سواء من حيث الاستيرادات أم التصديرات ، يجري مع فرنسا التي بذلت كل جهد لاستغلال الجزائر أسوأ استغلال . يضاف ذلك إلى كل ذلك أن

التجارة والصناعة والمواصلات والمصارف ، كلها في أيدي الفرنسيين ، أما الجزائريون فانهم يكدون ويكدحون لكي يشتروا ما يلزمهم من المنتجات التي فرضها عليهم استعمار فرنسا . يتضح من كل ذلك ان الاستعمار الفرنسي قائم على الاستغلال الاقتصادي ، بالاستيلاء على المواد الأولية وفتح السوق لتصريف المنتجات ، فلا عجب إذا رأينا المستعمر الفرنسي يعمل جاهداً لاقصاء الوطنيين عن الميدان الاقتصادي . ومن ثمة نشأت أما الوطنيين مشكلة المستوطنين الأوربيين وما تحت أيديهم من أراض ومصانع لا يملك الوطنيون حيلة ولا وسيلة ولا مالا لاستردادها من ايديهم بثمنها . وما حيلة الشعب الجزائري الأعزل في ذلك ما دام الاستعمار يستخدم القوة الوحشية والاكراه ويسن القوانين للاستيلاء على الثروة القومية وعرقلة التطور الاقتصادي فالقروض ورخص الاستيراد والتصدير لا تمنح للتجار واصحاب المصانع المسلمين إلا إذا كانت ميولهم فرنسية . كما لا يتورع الفرنسيون عن فرض الضرائب الفادحة على المسلمين وعزل الموظفين والمستخدمين منهم بتهمة الوطنية . هذا إلى اجراءات المصادرة والاغلاق كلما وجد المستعمر سبيلا إلى ذلك .

الحالة الاجتماعية

تعيش في الجزائر طائفتان : طائفة المستعمرين الفرنسيين والمستوطنين الأوربيين ، وهم فئة قليلة، بجانب طائفة الجزائريين ، أهل البلاد الشرعيين

وهم الأغلبية الساحقة إذ يبلغ عددهم . احد عشر مليونا يبلغ عدد الأقلية الأوربية في الجزائر ٨٠٠ ألف نسمة ، بين مسيحيين ويهود اندمجوا تماما في الأسرة الأوربية ويجمع بينهم جميعاً شعور البغض للعرب والجزائريين ، وتتحد كلمتهم على اضطهادهم والتنكيل بهم في كل فرصة . ان المستعمر الفرنسي في الجزائر مثل غيره من الأوربيين القاطنين في الجزائر قد احتل الأوقاف الاسلامية وتصرف فيها وربط الدين الاسلامي بالسلطات الحاكمة ان الزائر للجزائر اليوم لن يجد اسم أي جزائري في أي مصنع او معمل أو مخزن مهم أو فندق أو مهعد أو مؤسسة اقتصادية أو مالية أو تجارية ، لقد طغى التمييز العنصري على الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في الجزائر من أدناها إلى اقصاها ، حتى أن مظاهر التفرقة العنصرية لم تقتصر على تحاشي الاختلاط بالجزائريين بل تعدتها إلى التطاول عليهم ، والتحرش بهم لاستفزازهم واستثارة شعورهم عمداً ، الأمر الذي كان ولا يزال يؤدي إلى الثورة جماعات وأفراداً والانتقام لأنفسهم باستعمال السلاح وسواء أقتل الجزائري مستفزه الفرنسي أم جرحه فان عقابه واحد ، الاعدام أو السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة . ان قصة التمدين التي جاءت بها فرنسا من بلادها إلى الجزائر قصة مؤلمة مضحكة معاً ، فهؤلاء الممدنون الفرنسيون لما احتلوا الجزائر وجدوا أهلها يعيشون عيشة رفاه وبذخ فذهلوا من تقاليدهم وعاداتهم العربية وشدة تمسكهم بالدين وحبهم واعتزازهم بقوميتهم ، وملابسهم العربية وبطراز معيشتهم المنزلية والخارجية ، واليوم فان الجزائريين لا يزالون على

عاداتهم وتقاليدهم وشدة تمسكهم بدينهم واعتزازهم بقوميتهم وبملابسهم العربية وبطراز معيشتهم .

ان فارقا كبيراً طرأ على الجزائر منذ أن احتلت فرنسا الجزائر ، فلقد فقد أهل الجزائر عيشة الرفاه والبذخ التي شاهدها الفرنسيون يوم دخولهم الجزائر ، وأصبحوا فقراء معدمين ، وصار الفرنسي الذي دخل الجزائر فاتحاً مخشوشناً يعيش مترفا متعالياً .

لقد صدر أخيراً مؤلف بديع الطبع — وفقاً لارشادات السيد روجيه ليونارد ، حاكم الجزائر العام — سمي (الجزائر المعاصرة) ويتضمن النصوص والصور الفوتوغرافية التي وضعت تمجيداً للاستعمار الفرنسي ويقع في ٢٣٥ صفحة ، هذا المؤلف يشيد بذكر المدن والمرافىء ، والسدود الضخمة وأقنية الري ، والمزارع الحديثة ، والمدارس ، والمستشفيات ، وبكلمة مختصرة : لمختلف المشروعات التي حققها الاستعمار . وهذه المشروعات هي مهمة ولاشك . ولكن ثمة سؤال لابد أن يطرحه الانسان : من الذي يستفيد من هذه المشروعات ؟ وهل صحيح كما يؤكد كتاب (الجزائر المعاصرة): « إن شرف التمدن الفرنسي انما يقوم في كونه قد ولى اهتمامه ، في الدرجة الأولى ، للانسان على الدوام » . ومن يملك هذه المزارع الغناء التي تتمتع بأحدث الآلات والتي تبرز من بين الكروم والبساتين في جميع سهول الجزائر الخصبة الغنية ؟ من يملك الـ ١٩٠٠٠٠ هكتار من الأراضي المروية ؟ ولمن خصصت العمارات والدارات التي تستغل حركة انطلاقها المتسارعة

لامتداح الازدهار في الجزائر ؟ انها خصصت بصورة خاصة لرجال الأعمال والموظفين والتجار الفرنسيين . وليس ثمة أي مراقب ، ولو كان سطحياً يزور إحدى المدن الجزائرية الكبرى إلا ويلاحظ التناقض القائم بين ترف الأحياء الفرنسية الذي كثيراً ما يكون معيباً فاضحاً ، وبين بؤس احياء الجزائرية والمدن المبنية من التنك والتي تتكدس فيها عشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال . ولا شك في أن ثمة الطرقات ، والسكك الحديدية والمرافىء ، هذه التي يستطيع أن يستفيد منها كل إنسان ، ولكن هل حاول المستعمرون أن ينشئوا مصالح عامة حقيقية ، كما هو حاصل في فرنسا، مخصصة ليستخدمها مجموع السكان ؟ ان العكس واضح وضوحا تاما إلى حد أن الحكام أنفسهم لا يستطيعون إخفاءه . واليك ما يقوله كتاب (الجزائر المعاصرة) فيموضوع الـ ٤٣٥٠ كيلومتراً من الخطوط الحديدية الموجودة : «تتألف الشبكة الجزائرية بصورة جوهرية من خط رئيسي يجتاز البلاد من الشرق إلى الغرب ، تتفرع منه طرقات ، تنفذ إلى الجنوب أو تتجه نحو الشمال والواصلة إلى المرافىء » . وهكذا وبالاضافة إلى الغاية الستراتيجية التي بنيت لأجلها شبكة الخطوط الحديدية هذه، حسب اعتراف الادارة الاستعمارية نفسها ، لنقل موارد الأرض لاعدادها للتصدير بصورة رئيسية إلى فرنسا ، من المرافىء الجزائرية ، وكذلك هو شأن الطرقات فحيث تخلوا البلاد من ثروات للنهب ، لا يكون ثمة طرقات ، وإنما فقط طرق بدائية ضيقة أو مسالك ، وعندما حدثت الهزات الأخيرة في منطقة

أورليانفيل شهدنا هذه الفضيحة ، وهي احتشاد أكثر من ٨٠٠٠ شخص من السكان — من بني راشد — الذين ظلوا محرومين من أية إغاثة ، طوال أيام كثيرة ، وذلك لأنه حسب قول الادارة ، ما كان بامكان أية سيارة الوصول إلى هناك لعدم وجود طرق مواصلات . رغم كل ذلك يزعم غلاة الاستعمار الفرنسيين اليوم بأن الجزائر مدينة لفرنسا بما حصلت عليه من مدنية وتقدم ! ! ولكن الفرنسيين القدامى والمحدثون يقولون غير هذا القول ، بل يدحضون هذه المزاعم جملة وتفصيلا وذلك لأن الفرنسيين لم يفعلوا شيئاً لتمدين الجزائريين أو لتقدمهم بل تركوهم يعيشون في عقر دارهم الجزائر وهم يتسكعون في دياجير الجهل والمرض والفقر ، في حين ان الدخيل الفرنسي المعمر الفقير صار يعيش وكأنه ورث المجد والمال كابراً عن كابر . وللدلالة على أكاذيب قصة التمدين الفرنسية التي حملت فرنسا رسالتها إلى الجزائر . نورد هنا قول المؤرخ الفرنسي (تايار) الذي وصف أعمال الجنرال روفيغو الجنونية الوحشية في الجزائر وتصريحاته ضد الجزائريين العرب بقوله على لسان الجنرال روفيغو سنة ١٨٣٢ : ان هؤلاء العرب في الجزائر لا نريد تمدينهم ! ! يجب أن نطردهم بعيداً عنا كطرد الوحوش الضارية التي تنفي من مجاورة الأماكن المأهولة ! ! يجب أن نسوقهم إلى الصحراء . . فان إطراد تقدم مؤسساتنا يحتم علينا أن نطردهم إلى الأبد يتسكعون بين رمال

الصحراء . هذا هو رأي فرنسا منذ السنة الثانية لاستعمارها في الجزائر في أهل الجزائر العرب ، وقد بقي هذا رأي نافذ المفعول حتى يومنا هذا . . . وهذه هي خرافة التمدين الفرنسي الاسطورية .

التعـــليم

التعليم

أهمل الاستعمار الفرنسي منذ احتلال الجزائر شؤون التعليم ، وعرقل انتشار اللغة العربية ، وقد يدهش القارىء إذا قلت إن أكثرية الشعب الجزائري أمسى يجهل العربية . وحتى معاهد التعليم الحرة حاربها الاستعمار الفرنسي بقانونه الصادر سنة ١٩٠٤ والقاضي « بأنه لا يجوز لأي معلم مسلم أن يفتح أو يتولى إدارة مكتب لتعليم اللغة العربية إلا بترخيص من عامل المنطقة أو قائدها العسكري، ومن يخالف يعتبر مسؤولا أمام القانون ويعاقب بالحبس أو الغرامة أو بكلتا العقوبتين » . ولما اشتعلت نار الثورة الجزائرية عام ١٩٤٥ انتهز الاستعمار هذه الفرصة لغلق أبواب المدارس ، فأصدر قراراً يفرض على معلمي المكاتب العربية معرفة اللغة الفرنسية ، ولما كان معظم المعلمين من خريجي كلية (الزيتونة أو كلية القرويين) ومعظمهم يجهل اللغة الفرنسية . فقد كان هذا القرار سبباً لاغلاق عدد كبير من المدارس الأهلية ان عدد الطلاب في المدارس الفرنسية والأوربية اليوم يبلغ ٢٣٠ ألف طالب يدرسون في المدارس الاولية والثانوية والعالية وهؤلاء هم حصيلة المليون فرنسي وأوربي المعمرين في الجزائر . أما عدد الطلاب الجزائريين الذين يدرسون في المدارس الفرنسية الرسمية فهو لا يزيد عن ٣٠ ألفاً من مجموع عشرة ملايين .

ويفخر الفرنسيون بأنهم أوجدوا المدارس. وصحيح أنهم شيدوا عدداً

منها وما يزالون يبنون مدارس جديدة كل عام ولكن إليك أرقاماً رسمية إن عدد الاولاد المسجلين في المدارس الآن هو ٤٣٠٠٠٠ تلميذ من أصل ٢٢٠٠٠٠٠ شخص في سن الدراسة ، وهذا معناه أن ٨٠٪ من مجموع الاولاد الجزائريين لا يذهبون إلى المدارس . والنسبة تبلغ ٩٠٪ عند اولاد المسلمين .

وبسبب تزايد السكان ، فان عدد الاولاد الذين لا يجدون مكاناً لهم في المدارس يزداد كل عام بنسبة بضع عشرات من الالوف . ولقد وضعت الحكومة العامة سنة ١٩٤٨ تصميما لنشر العلم على مدى عشرين عاما ، يجري تحقيقه ـ إذا صدقنا الانباء الرسمية (بنجاح تام) وإليك نتيجةمدعومة بالارقام : فبعد ست سنوات من تطبيق هذا التصميم ، سجلت الاحصاءات الرسمية مايقارب نصف المليون من الاولاد الذين حرموا من ارتياد المدارس: وهذه الحالة معرضة في الواقع إلى أن تستفحل وتزداد خطورة كما تشهد بذلك ميزانية الجزائر لعام ١٩٥٣ــ١٩٥٤ التي زادت الاعتمادات المخصصة للبوليس مبلغ ٥٧٠ مليوناً من الفرنكات كما أن المبالغ المخصصة لبناء المدارس قد أنقصت بنسبة ١٤ بالمائة بالنسبة إلى السنة السابقة . ولنضف فقط لاتمام الصورة لمأساة التعليم في الجزائر أن ثمة ٥٠٠ طالبا مسلماً من الـ ٥٠٠٠ طالب في جامعة الجزائر ، وان التعليم الرسمي كله باللغة الفرنسية . واللغة العربية ــ رغم أن ٧٠٪ من السكان يتكلمون بها ــ تعتبر في الواقع بمثابة لغة أجنبية .

الحالة الصحية

لم يكتف الاستعمار الفرنسي بعد أن أفقر الجزائريين واستولى على أملاكهم ونشر الجهل بينهم . بل نقل معه إلى البلاد أمراضاً فتاكة ، لم تكن من قبل معروفة في الجزائر . كالزهري والسيلان وأشباههما ، ولم تقدم سلطات الاستعمار على بناء بعض المستشفيات إلا ذراً للرماد في العيون ، على أنها لم تنشئها إلا حيث اقتضت مصلحة الأوربيين إنشاءها . . .

لنلق نظرة سريعة على المشروعات التي يشدق بها الفرنسيون بتحقيقها في ميدان الصحة العامة وفقاً لحاجات السكان . ان السكان المسلمين في الجزائر يتزايدون كل عام بنسبة ٢٠٠٫٠٠٠ شخص وليست هذه ، كما يزعم المستعمرون ، نتيجة من نتائج الرفاهية التي يزعم أنها تسود البلاد ، وإنما هي نتيجة لمكافحة السلطات العامة الأوبئة ، ومجموع السكان يفيد طبعاً التدابير الاستعمارية ، وهنا يحق لنا أن نتساءل لأية غاية أتخذت هذه التدابير ؟ أن الغاية هذه يبينها بوضوح السيد البير سارو وزير المستعمرات الفرنسية ووزير داخليتها وكان مسؤولاً عن إدارة الجزائر يقول هذا السيد في كتاب صدر له عام ١٩٢٣ بقوله : « إن عمل الاستعمار كله ، هو خلق الثروات بكاملها لاستنزافها وهذه تتطلب اليد الوطنية العاملة في المستعمرات : فهي الحجر الأساسي للصرح الاقتصادي الذي نريد تشييده . . ومن هنا نشأت الضرورة في أن ننظم . ونتابع بصورة منهجية ، وفقاً لتصميم حربي ، يقام

بوضوح في كل مستعمرة ، المعركة القوية العنيدة ضد الأمراض والأوبئة والكوارث ، وخصوصاً في أفريقيا ، بشطر كبير من السكان الوطنيين ... ونقول بكلمة مختصرة : إنها ضرورة المحافظة على الرأسمالي البشري ، وزيادته لكي نستطيع أن نشغل الرأسمال المالي ونستثمره » . ليس من المستطاع التعبير بأفضل من ذلك لأن زيادة الرأسمال البشري هي ضرورة بالنسبة للاستعمار . وهذه أمثلة تدل على تردي العناية الصحية في الجزائر :- في مدينتي الجزائر ووهران وثمة طبيب واحد لكل ١٤٠٠ شخص من السكان أما في سائر مناطق الجزائر الأخرى ، فان النسبة هي طبيب واحد لكل ٣٠٫٠٠٠ حتى تبلغ طبيباً واحداً لكل ٨٠٫٠٠٠ شخصاً في بعض المناطق الجنوبية . في المدن الجزائرية الرئيسية الثلاثين حيث ثمة إحصاء دقيق ، نرى عدد وفيات الأطفال الذين هم دون السنة ، من أعمارهم هو التالي في عام ١٩٥٣ : الأوربيون : ٤٦ وفاة لكل ١٠٠٠ ولادة — المسلمون ١٨١ وفاة لكل ١٠٠٠ ولادة . وهذه الزيادة راجعة إلى الاهمال وقلة أسباب العلاج من قبل السلطات الفرنسية .

الشخصية الجزائرية

الشخصية الجزائرية

من الأمور المسلم بها أن للجزائر جنسية قائمة بذاتها ، تختلف تمام الاختلاف عن الجنسية الفرنسية ، فلا صلة بين اقتصاديات البلدين ولا بين لغتهما ودينهما وتاريخهما وتقاليدهما، أن الجزائر العربية التي حملت السلاح اليوم لقتال الاستعمار ، لا تزال وستبقى رد فعل مثالي لشعب مظلوم ، محكوم بقوة النار والحديد . ولم تكن الجزائر في يوم من الأيام إلا بلداً عربياً ، يفضل الموت على أن يستمر في حياة الذل والفقر والجهل ومن المضحك حقاً ما يتشدق به نواب فرنسا في برلمانهم بأن الشرف الفرنسي منوطاً ببقاء فرنسا في الجزائر ، وأن هذا الوجود ضرورة لازمة ، وقد صار الآن وجوداً غير مرغوب فيه أصلا ، وأن هذا الوجود الفرنسي في الجزائر الذي يستخدم اليوم أكثر من نصف مليون جندي لغرض بقائه بالقوة والقسر والارهاب والظلم قد قوبل بالقوة العربية الصاخبة الثائرة ، التي أخذت تعمل جاهدة لازالة هذا الوجود البغيض من أرض الوطن الجزائري ، مهما كلف الثمن ومهما تعاظمت التضحيات ، لقد فشلت فرنسا من فرنسة الجزائر بمرسومها الصادر عام ١٩٣٦ ، والقاضي بطمس الذاتية العربية في الجزائر استناداً إلى المادة ٨٠ من قانون الجنسية الفرنسية ، لقد فسر الأستاذ العلامة الشيخ محمد البشير الابراهيمي هذه المادة في المحاكمة التي أجراها العدل الفرنسي له في الجزائر قبل بضع سنوات فقط ، قال الشيخ يخاطب رئيس المحكمة الفرنسية

« في ذهنية حضرات الوزراء الفرنسيين الذين يريدون تطبيق المادة ٨٠ على الجزائر تضارب ومؤامرة عملية على حقيقتين ثابتتين : أولاهما محو الشخصية العربية في الجزائر التي كانت نتيجة لعوامل تاريخية ثابتة مستقلة كل الاستقلال عن تاريخ فرنسا، وثانيهما حكم الجزائر بأساليب استعمارية تبرهن لنا وتبرز حقيقة مؤامرة استعمارية ظاهرة . تصوروا يا سادة أنهم في الكتب المدرسية في الجزائر ، يقولون إن أجداد عرب الجزائر الفاليون أجداد الفرنسيين ، وفي ذلك نهاية الافتئات على الحقائق التاريخية ثم يغيرون اسمنا فبعد أن اعتبرونا فرنسيين عادوا يطلقون علينا اسم المسلمين الفرنسيين ثم الافريقيين الفرنسيين . اسمحوا لي يا سادة أن أقول لكم : إن هذه الأساليب في تحديد أصلنا وتشويهه ، تحز في نفوسنا ، وفي وجودنا وإيماننا بحق الانسان في تقرير مصيره ، سوف أضع أمامكم الآن تخطيطاً عما تنفعل وتختلج به نفسي تجاه هذا الأمر الذي يزور الحقائق ويقلب الأحاسيس والغايات ، يقولون لي إنك فرنسي أقول إن هذا خطأ ، ذلك أنني أحب الايلدوفرانس الرائعة ، ولكنني أفضل الجمال الجاف في منطقة القبيلة موطني الأصلي عليها ، أحب باريس وآثارها الجميلة ولكني أفضل تلمسان وبسكرة ومدينة الجزائر عليها ، أحب اللغة الفرنسية ، ولكنني أحب أحب أكثر بكثير اللغة التي خلقت ونشأت على تكلمها وهي العربية » .

ولبيان الشخصية الجزائرية هنا بوضوح يحدثنا المكافح السيد عبدالحميد مسعود الجزائري اللاجىء السياسي بمصر الآن عنها ما يأتي : — لقد تعودت

فرنسا — أن تلجىء إلى الحديد والنار كلما جابهها الشعب الجزائري بحق تقرير مصيره . وبحريته واستقلاله . حتى إذا ما هي اغرقت — مؤقتاً — مطالبه في برك من الدماء والدموع . راحت تدس للرأي العـــام الدولي . لتبرير إجرامها متهمة الشعب الجزائري بأن أياد خفية تحركه ، أو بأنه يعمل لفائدة دولة أجنبية. أن الشعب الجزائري لا يصدر في كل حركاته التي تهدف إلى خلاصة وحريته . إلا عن وعيه القومي . وعن إيمانه بأنه ليس أقـــل مؤهلات ومقومات من أي شعب آخر ، حتى يرضى لنفسه بأن يكون آلة في يد هذا أو لعبة يد ذاك. أو بأن يقبل هذا اللون من الحياة التي تريد فرنسا أن تفرضه عليه فرضاً . أن الشعب الجزائري ليس من أحزاب اليمين حتى يتهم بالفاشستية ولا هو من أحزاب اليسار حتى يتهم بالشيوعية ، وإنما هو شعب عربي يكافح لتحقيق مثله العليا . وأداء رسالته الكبرى في عالم يســـوده السلام والوئام . وهو لذلك لا ينبغي له أن يتغنى بمبادىء هؤلاء ، ولا بنظم أولئك ، وإنما هو يشق طريقه قدما وعوانا بين ذلك إلى هدفه الأسمى . أن الشعب الجزائري لا يضمر لأي شعب سالمه أي حقد وأية بغضاء ، فهو يمد يد الاخاء والسلام كما أنه يشهر عدوانه، ويعلن احتقاره وكراهيته لكل من يريد أو يحاول أن يلحقه في قوميته أو في شخصيته بسوء ، أو أن يحول بينه وبين هدفه في الحرية والاستقلال. أن الشعب الجزائري لا يقبل العدوان من أية ناحية جاءه . فهو قد آمن بحقه ، وهو لذلك مســـتعد لأن يدفع في سبيل تحقيق هذا الحق أعز ما يمكن من الدماء وأغلى ما يمكن من الغذاء .

أن فرنسا التي كانت أثناء الحملة على الجزائر سنة ١٨٣٠ تقيم في الأسواق المعارض لبيع وعرض ما ينهبه الجنود الفرنسيون فى حملاتهم ، إلى حد أن الأقراط والأساور كانت تعرض للبيع وهي عالقة بآذان السيدات العربيات وفي أذرعهن !

هي فرنسا التي لم ترو ها دماء عشرات ألوف الضحايا التي أراقتها في حوادث ٨ مايو سنة ١٩٤٥ في الجزائر ، ولم تشعبها أشلاء مئات الجثث التي مزقتها في نفس الشهر في سوريا الشعب الشقيقة . ولم تحد من حقدها على العروبة الخرائب الكثيرة العديدة ، التي قامت في كلا البلدين — فعمدت لاطفاء ظمئها باعدام بضع عشرات من إخواننا الوطنيين . بعد كارثة ٨ مايو سنة ١٩٤٥ بعشرين شهراً متحدية في ذلك عواطف العرب والمسلمين . وضاربة صفحاً عن الخطوات التي اتخذتها جامعة الدول العربية لوقف تنفيذ الاعدام .

إن فرنسا — هي هي لا تتبدل — ولا تعرف مجارات لروح العصر فهي رجعية مسرفة في رجعيتها . وهي استعمارية ظالمة في استعمارها وهي عنصرية حقود متعصبة لعنصرها . فلقد خبرناها ملكية متمسكة بملكيتها، وجربناها جمهورية متغالية في جمهوريتها ، وعرفناها بعد ذلك تسرها الميمنة مرة والميسرة مرة أخرى . فكانت في كل هذه الأدوار والأطوار . مستعمرة باغية ، وعدوة جائرة ، ومستبدة ظالمة . وأن فرنسا الجديدة ذات الدستور الحديث ، هي فرنسا القديمة ذات البطش والاستعمار الشديد . أنه في عهد الدستور الجديد للجمهورية الفرنسية الرابعة الجديدة وفي عهد حكومة

بلوم الاشتراكية ، أعدم عشرات الاخوان، وزج بمئات الوطنيين في غياهب السجون ، ومنع رئيس الحركة الوطنية الجزائرية السيد أحمد مصالي ، من التنقل في أطراف القطر الجزائري .

أن الدستور الفرنسي الجديد ، ما هو إلا سراب يحسبه الظمآن حرية وعتقاً وخلاصاً ، حتى إذا أخبره لم يجده إلا أغلالا واستعماراً وعذاباً أليماً !! ويكفي المرء أن يقرأ بنوده الخاصة بالاتحاد الفرنسي، ليعلم ما هو مصير شعوب شمال أفريقيا ، وغيرها من الشعوب التي قدر لها أن ترتبط بفرنسا حتى الساعة وليدرك أن هذا المصير يناقض كل ما جاء في المقدمة ، وأن انشودة الحرية ، ما هي إلا أغنية فرنسية لا يسمعها ولا يتمتع بتوقيعها وبأنغامها إلا الفرنسيون . أما نحن الجزائريين مثلا — فحرام علينا أن نتمتع بالحرية ، أو وأن نتغنى بالاستقلال ، إلا إذا انسلخنا من جنسيتنا وانقلبنا أعداء لبنى أرومتنا وتخلصنا من كل ما هو شرقي وعربي ، وحتى في هذه الحال انما نصبح أتباعاً نعيش بما يتساقط من الفتاة من مؤائد الفرنسيين الذين يريدون أن يخادعون ، وما يخدعون إلا أنفسهم ، وأ يغالطوا الرأي المتمدين العالمي بألفاظ خاوية . أنه من الغلط أن نظن أن فرنسا قد شبعت من جشعها الاستعماري ! فما تحملته طوال سنوات الحرب ، وماذاقته من وطأة الاحتلال الألماني لم يزدها إلا جشعاً على جشعها ، وتعسفاً على تعسفها . أن المقاومة الجزائرية إذا قيست بعدد الضحايا التي قدمتها طول مدة احتلال ، وقيست بما يبذله الفرنسيون في الجزائر للقضاء على كيان هذا الشعب العربي المجيد —

وجدنا الباذة في الشهامة والشجاعة والمحافظة على الكيان القومي . لقد قضت فرنسا في الجزائر أكثر من مائة وعشرين سنة ، وهي بالاضافة إلى أنها تملك كل شيء من وسائل الخسف والتدمير . قد جردت الشعب الجزائري من ما يكفل له سيادته الدولية ، أو ما يصون له كيانه القومي ، وهذا كاف للقضاء على أعرق الشعوب مدنية ، وأطهرها عنصراً . فهل تظنون — أنها حققت خطوة واحدة من سياستها الأثيمة . سياسة المحق والالحاق طوال هذه المدة ! ! كلا وما حوادث سنة ١٩٤٥ ، إلا برهان واضح ودليل ساطع على فشل فرنسا ، وعلى انتصار هذا القطر الثابت للضربات . الصامد للعدوان المتطلع نحو الخلاص والاستقلال. أن المانيا لم تبق في فرنسا عشرات السنين ولم تحاول قط أن تلحقها بالريخ ومع ذلك ، فلم تمض إلا أربع سنوات وكسور . حتى رأينا الفرنسيين يتنصلون من جنسيتهم متقربين إلى الالمان . خاضعين صاغرين مستسلمين . وهذا ما يوضح لنا هذه المثلى في الجزائريين الذين لم يضعوا السلاح حتى اليوم . ولم يدخروا جهداً إلا بذلوه في سبيل استرجاع حريتهم وسيادتهم، فهو قد ثار على الفرنسيين في حرب السبعين وفي الحرب الأولى — وفي الحرب الأخيرة ، وثار ثورات متعددة متعاقبة ما بين هذه الحروب . أن الجزائر لا ترضى إلا الحل الذي اختارته لها الطبيعة ، وطبعها به التاريخ ، وارتباطها بالعوائد والتقاليد العربية ومن هذا فهي لا ترضى بعروبتها بديلا ولا تبغي عن شرقيتها حولا . واننا لو كنا نريد للقضية الجزائرية حلا غير عربي ، لكننا أممنا لندن أو موسكو أو نيويورك

مثلا ، فوجهتنا في حاضر الأمة ، وعاصمة العروبة القاهرة ، ليس هو رمية من غير رام ، وإنما هو تعبير صارخ ودليل قاطع على الوجهة الطبيعية التي تبتغيها الأمة الجزائرية ، وعلى الجهة التاريخية الاقليمية التي جعلها الشعب قبلة له . اننا عرب بحكم عروبتها ، فنحن لا نقبل بحال من الأحوال أي حل لقضيتنا الجزائرية يمس هذه العروبة من قريب أو بعيد ذلك هو نسبتنا الذي اختارته الازلية لنا ، وسجله التاريخ ، فما أكرمه من نسب .

أن المسألة بيننا وبين فرنسا، أصبحت مسألة زمان. فنحن إن لم ننتصر في الغد القريب. فسوف ننتصر في اليوم الذي يليه ، وهذه حقيقة لا يشك فيها، حتى الفرنسيون أنفسهم ، فلتستعمل فرنسا ضدنا ما حصلت عليه من السلاح والعتاد من أمريكا، ولتسرف في العدوان . فليس ذلك بمغير من الحقيقة شيئاً . وليس هو براد من الجزائر هزيمة محققة لهم ، وانتصار لنا لا يتطرق اليه احتمال . ان الجزائر تشق طريقها إلى الحرية والاستقلال غير مبالية بالعقبات والاشواك، وليكن ثمن الخلاص ما يكون العرق والدموع والدماء.

لقد جاءت الثقافة الفرنسية تواكب الاستعمار وتجاريه ويسخرها أهلها للقضاء على الشخصية الجزائرية ، فكان من ذلك تفور من كل ما هو غربي . حتى ولو جاء معه الخير . وقد يكون في هذا القول بعض المبالغة ، ولكن الخير الذي يريد أن يمحق الشخصية لا يستمرئه الناس ، ولما آذن الوقت بانتعاش الحركات الفكرية والروحية بين المسلمين في الجزائر ، اتخذت هذه الحركات صفة سلفية قوية ، المحافظة على كل شيء في الاسلام

وإحيائه ، فاذا كانت السياسة ترمي إلى القضاء على اللغة العربية والاسلام فمقاومتها تقضي بالتشدد في الحفاظ على العروبة والاسلام . ولعل هـــذا ما يوضح المحافظة القوية التي تقسم بها الحركة في الجزائر .

لقد نشرت المدارس الفرنسية والمعـــاهد الأخرى ، العلوم الطبيعية والرياضية باللغة الفرنسية ، وحرمت العرب من أن يتعلموا هذه الموضوعات بلغتهم ، على نحو ما اتيح لأبناء الشرق العربي ، فنشأ الناس على أنه ثمة عالمان منفصلان — الأول عالم الفكر الغربي ولا يعبر عنه إلا بالفرنسية ، والثاني عالم الفكر الاسلامي العربي، وهذا تقتصر العربية عليه. والتقيت بجماعة من الجزائريين تخرجوا من الجامعة ، يقومون بتدريس العلوم والرياضيات باللغة الفرنسية ، ولـكنهم لا يستطيعون التحدث باللغة العربية في خارج حدود الأمور اليومية العادية ، من مأكل ومشرب ونحوهما. وهذا الفصل الفكري زاد من النقمة على الغرب وفـكره وقد اتضح لي أن هذا الفصل الفـكري موجود حتى في المعاهد التي تعلم باللغتين العربية والفرنسية ، وحتى في الذين يعلمون فى تلك المعاهد . فقد وقر في نفوسهم أن الثقافتين منفصلتان متباعدتان متنافرتان متناقضتان . وانهما تمتان إلى عالمين لا سبيل إلى التوفيق بينهما . يضاف إلى هذا أن السياسة الفرنسية تصر على اعتبـــار الجزائريين مكونين من جماعتين مختلفتين أصلا وتاريخاً وعاطفة وفـكراً ، الواحـــدة عربية والأخرى بربرية . ولهذا عمل الحـكام الفرنسيون على تدوين القانون الخاص بالبربر باللغة الفرنسية واعتبره أصلا لحياتهم ، زوراً وبهتاناً . وهذا

الذي دون هو مجموعة من العرف والعادة و بعضه حرى بأن يتلف لولا أن السياسة أرادت استغلاله . هذا مع العلم ان البربر يرجعون بأنسابهم إلى أصول ثلاثة : منهاجة وكتامة وزناتة . واختلف المؤرخون في منشأهم. ولكن الرأي ما أثبته المؤرخ الأمريكي (جمس هنري برستيد) من أنهم عرب ساميون هبطوا المغرب عن طريق مصر من زمن سحيق في التاريخ.

في الجزائر إمكانيات قوية ، وقوى لا تزال مخبوءة يجب أن تظهر وأن توجه وأن يفاد منها . وللجزائريين آمال وأماني . فهم الآن يريدون الاستقلال ولا يرضون به بديلا ، ويريدون هذا الاستقلال في أطار من جامعة إسلامية . ولكن بينهم من يكتفي بالجامعة العربية على أساس أن القومية ، لا الدين هو الرابط الأساسي . وأود أن أؤكد للقارىء الكريم أن الجزائريين لم يطلبوا الاستقلال مجاناً ولااستجدوه استجداء. أنهم دفعوا وما يزالون يدفعون ثمنه نفياً وتشريداً ودماء. وهو ثمن حري بأن يأتي بنتيجة .

وقد عرف القادة هناك أن الاستقلال (كل) لا يمكن أن يؤخذ مجزءاً ولا يمكن أن يقام بناؤه مفرقا ، لذلك أخذوا أنفسهم في السنوات الأخيرة ببناء النواحي الأخرى للوصول إلى أهدافهم وخاصة في الحقل الاقتصادي والميدان الفكري الثقافي ، ولا يزال الحقل الأول وقفاً على أفراد ، ولكن نشاطهم كبير . أما في الميدان الثقافي فالعمل أوسع نطاقا ، وإن لم يكن أسهل بسبب موقف السلطات . وهنا أمور حرية بأن تؤخذ بعين الاعتبار ، وهي

أمور هامة في مقدمتها أن الجزائريين يقاومون جماعة لها حضارة وثقافات قيمة علمية عالمية . وقد تكون في هذه الحضارة مغامر وفيها مواطن ضعف ، لكنها من جهة أخرى ، حضارة تقوم على العلم وروحه — بغض النظر عن السياسة وألاعيبها ، لأنها حضارة فيها فكر نابض وحياة متوثبة ، وفيها اختبارات روحية اجتماعية تعتبر الفرد أساساً المجتمع ، وقد أخذ الشرق بالمظهر من هذه الحضارة أكثر مما يحتاج وأهمل الجوهر الذي تقوم عليه هذه الحضارة . والأمر الثاني هو أن الجزائريين يبنون حياتهم الروحية والفكرية على الثقافة العربية والاسلام . وهم وجمعية العلماء في طليعة العاملين على هذا لاحياء الاسلام وتفقيه الناس في أمور دينهم ، فمن حق الاسلام علينا أن نعرضه للناس بأسلوب يتساوق مع العصر الذي يعيشون فيه . ولعل هذا الأمر يفرض نفسه فرضاً في قطر كالجزائر تحاول السياسة أن تقاوم الاسلام ، بكل وسائلها الفكرية الحديثة ، فاذن فالمتوجب على الذين يقفون انفسهم للمكافحة والدفاع عنه أن يكون عملهم إيجابياً لا سلبياً. فالسلبية الفكرية هي شر ما نخشى على كياننا . والايجابية الفكرية هي التي مكنت من قبل للحضارة العربية الاسلامية أن يكون لها كيان متين في مشارق الأرض ومغاربها . أن فرنسا تعرف تماماً أن الاسلام هو العامل الاساسي في تكوين شخصية الجزائريين ، ولهذا تحرص فرنسا — وهي ابنة الكنيسة الكاثوليكية — على مواصلة الجهود في سبيل محو هذه الشخصية ، وقد كانت أولى خطواتها في هذا السبيل ، أن وضعت الشؤون الدينية تحت سلطانها

المباشر ، فاستولت على الحبوس والعشور واصبحت المساجد تحت رحمتها ، والعجيب أن مبدأ فصل الدين عن الدولة الذي اعلنته الجمهورية الفرنسية ، يطبق على جميع الأديان ما عدا الدين الاسلامي . وفي الوقت الذي تشدد فيه سلطات الاستعمار النكير على المسلمين وتعرقل إقامة شعائرهم الدينية ، تشجع بكل ما اوتيت من قوة محاولات المبشرين المسيحيين ، لتطبيق برنامج التنصير الذي وضعه الكردينال لافيجري عام ١٨٦٧ فيما جاء على لسانه : « يجب ان نجعل من الأمة الجزائرية مهداً لأمة مسيحية ، وان نضيء ارجاءها بنور مدنية وحيها الانجيل ، وان نربط مصير افريقيا بحياة الشعوب المسيحية » . وقد سار الآباء اليسوعيون على هذا النهج ، فنشطوا لمحو معالم الاسلام وتنصير الشباب ، مستغلين حالة البؤس والشقاء ، ورغم كل ذلك باءت جهودهم هذه بالفشل الذريع . لذا جنح الاستعمار الفرنسي إلى محاربة القضاء الشرعي في الجزائر ، ومحاولة تقويض جهازه الذي كان يعد مفخرة من مفاخر البلاد قبل الاحتلال . فلما عجز عن القضاء عليه بقضه وقضيضه ، راح يناوءه ويحد من اختصاصاته بما كان يصدر من قرارات وقوانين ، حتى اضحى قاصراً على دعاوى الأحوال الشخصية والمواريث . لقد عانى الاسلام ما عانى على يد قوات الشر الاستعمارية التي تحالفت عليه ، وآن لنا ان نقوم قومة بطل واحد لطردها والقضاء عليها . ان نسمات الحرية تهب من قريب فلابد ان يبلغ العرب أهدافهم ، ويفرضوا شخصيتهم شاء الاستعمار أو أبى . وان الجزائر العربية ستظل قلعة منيعة من قلاع الوطنية ، وحصناً من حصون الاسلام ، ومشعلا متوقداً للنضال العربي .

حدث الهجوم الفرنسي علي الجزائر عام ١٨٣٠ دون ما سبب يدعو إلى ذلك إلا رغبة الاستعمار في الاستلاب والقرصنة . لم يقف الجزائريون موقف المتفرج من الهجوم الفرنسي بل هبوا يدافعون عن بلادهم ، بما يملكون من سلاح ضعيف ، وقلوب مؤمنة بحقها ، لقد قاوموا الجيوش الفرنسية الجرارة زهاء سنتين ، لم تستطع فيهما ان تحرز أي تقدم يذكر ، على الساحل الجزائري ، ورغم هذا لم تقف ازاء هذا العدوان الاقطار المغربية المجاورة (تونس ومراكش) موقف الجبان بل قامت تؤازرها في المقاومة ، ولما استشعروا انهم لا يستطيعون الوقوف امام العدو الذي كان يفوقهم اضعافا مضاعفة في العدد والعدة ، طلبوا الهدنة فرفض الفرنسيون هذا الطلب ، وظلوا سادرين في عدوانهم ، حتى ظفروا بعاصمة الجزائر ، ونهبوها وقتلوا الكثير من سكانها ، واستلبوا أموالهم وأملاكهم ، وشجعهم ماربحوه على المضي في احتلال الجزائر كلها ، يهدمون في طريقهم كل ما يشاهدونه من اسباب العمران ، وينهبون مايصادفونه من الاموال ، في وحشية تتضاءل امامها وحشية التتار . ودام هذا النضال ثمانية عشر عاما ، دافع فيه الجزائريون عن ارض الوطن ، دفاع الابطال ، وكان علي رأس هؤلاء الامير عبدالقادر الجزائري ، الذي هدّ حيل فرنسا وارهقها بالديون والخسائر الفادحة ، وطحن بجيوشه الجزائرية الباسلة ، شباب فرنسا وخضب بدمائهم

ارض الجزائر ، حتى ان كل واد او جبل في مختلف انحاء الجزائر ، يروي قصة بطولة الجزائريين وكفاحهم ، ففي عام ١٨٣٤ طلب الفرنسيون الهدنة من الامير عبدالقادر ، يتعهدون فيها باحترام الدين الاسلامي ، والتقاليد المرعية وحرية التجارة والاسواق واعادة الاسرى كما يتعهد الامير بتأمين حياة المسيحيين الذين يجوبون الصحراء ولكن التجار والمضاربين الفرنسيين استخدموا نفوذهم وضغطوا على القائد الفرنسى حتى لا يوقع الاتفاقيـة ، بدعوى انها تحد من استغلال الجزائر ، كما تنطوي على اعتراف ضمني بسيادة الامير عبدالقادر وقد استدعي بعد ذلك إلى باريس الجنرال ديمشيل الذي عقد المعاهدة مع الامير عبدالقادر دون ابرامها ، ولم يلبث خلفه ان نقضها ، فعادت نيران الحرب إلى الاشتعال مرة اخرى وفي غمرة هذه الأحداث قويت شوكة الامير عبدالقادر ، وازداد عدد مريديه واتباعه ، بعد ان استولى على ميديا ومليانة ، فهزم الفرنسيين على مقربة من مالتو عام ١٨٣٥ ثم تولى كلوزيل قيادة الجيوش الفرنسية مرة اخرى فكان قاسياً ارعن ، لا يترك محرما إلا اتاه ، لم يرع في الحرب قانون او اعتباراً إنسانياً ، فأعفي من منصبه ، بعد ان اشتدت الحملة عليه في مجلس النواب الفرنسي . وعين الجنرال دانريمون خلفاً له ، فاحتل مدينة قسطنطينة ، ولكنه سقط بعد ذلك قتيلا في ساحة المعركة .

ثم وضع الفرنسيون مشروع معاهدة اخرى مع الامير عبدالقادر ، ولكن الاختلاف حال دون التصديق عليه ، فضلا عن انها كانت تنطوي

على شروط مجحفة بالامير العربي ، فاستؤنفت العمليات الحربية ، بعد ان وافق البرلمان الفرنسي على زيادة قوات الاحتلال حتى تبلغ ١٨٠ الف مقاتل ولم تكن قوات الامير عبدالقادر تتجاوز في هذه الفترة ستة آلاف من القوات النظامية ، ونحو عشرين الفاً من غير النظاميين . ومع ذلك استمرت المقاومة الجزائرية على اشدها زهاء اربع سنوت ، ولم تفلح القيادة الفرنسية في القضاء عليها إلا بعد ان اتبعت خطة حرق القرى والدساكر لتجويع العرب وهي الخطة التي اتبعتها القيادة الفرنسية ، بعد نصف قرن في مراكش إذ عمدت إلى ردم الآبار والعيون الطبيعية حتى تقتل العصاة المناضلين ظمأ ! واخيراً بعد ان اظهر الامير عبدالقادر من ضروب البسالة والفداء ما خلد اسمه في التاريخ ، وبعد كفاح مرير اضطر الامير عبدالقادر الجزائري للتسليم ، فاعتقلته فرنسا والقته في السجن خمس سنوات ! على اثره برز من ابطال المقاومة الجزائرية ابو معزي وهو مراكشي الاصل من اولاد سيدي الطيب بنواحي مدينة وزان حيث دخل الجزائر عام ١٨٣٥ وقام بنشر الدعاية ضد الفرنسيين فاستطاع بذلك ان يجمع حوله خلقاً كثيراً ، وبما انه كان مستقلا في حركته ، فقدظن الفرنسيون اولا انه يمكنهم الاعتماد عليه في اضعاف سلطة الامير التي امتد رواقها ولكن ظنهم باء بالفشل ونازلهم سنتين كبدهم فيهما من الخسائر التي لا تعد ولا تحصى حتى سجل النصر العظيم في معركة سيدي ابراهيم ، مما اضطر الجيش الفرنسى إلى الاستنجاد بقوات قوامها عشر اف الآلاف من الجنود والمدرعات والمعدات الحربية ،

واستمر القتال حتى القي القبض عليه، ثم عفي عنه ، وانتقل إلى تركيا ورحب به العثمانيون ، وخصصوا له راتباً . وكان لهذا الزعيم أثره الكبير في نفوس الجزائريين ، فادعى ستة أفراد جزائريين أنهم أبو معزي ، وآخرهم شخص القي القبض عليه ، والفت محكمة عسكرية لمحاكمته ، فانظر إلى هذا الموقف الرهيب الذي وقفه أمام المحكمة بجرأة وشدة وعزم :—

الرئيس : من أنت ؟ المتهم : أبو معزي . الرئيس : لماذا قاتلت الفرنسيين ؟ أبو معزي : لكونهم أعداؤنا . الرئيس : وماذا تنتظر منا ؟ أبو معزي : لا يهمني ما أنتظره منكم . الرئيس : وإذا أطلقنا سراحك ؟ أبومعزي : عدت للجهاد في سبيل الله !. الرئيس : وإذا قتلناك ؟ أبومعزي: سأتقدم إلى الله ناطقاً بالشهادتين . الرئيس : وإذا سجناك ؟ أبو معزي : سأقضي أوقاتي طالباً من الله أن ينصر العدل على الظلم . س : لماذا تكرهنا؟ المتهم : لأنكم طغاة ظلام . وهكذا انتهت المحاكمة وحكم عليه بالسجن وأطلق سراحه بعد ذلك وفي سنة ١٨٤٦ . قررت فرنسا اعتبار الجزائريين فرنسيين واعتبار الجزائر بلاداً مفتوحة . فكان لهذا القرار الحد الفاصل بين استقلال الشخصية الجزائرية وبين الحكم الفرنسي الغاشم . والذي أعلن فيه مساواة الجزائريين للفرنسيين في جميع الحقوق والواجبات ، مع السماح لهم بالرجوع في أحوالهم الشخصية إلى أحكام الشريعة الاسلامية ، ولم يقف عند هذا الحد بعد تعديه حتى قال امبراطورها : أنني أعد نفسي امبراطوراً للعرب كما أنني امبراطوراً للفرنسيين ، وكلهم في نظري متساوون ! ! ولم

يكن القصد من هذا إلا استعباد الشعب الجزائري ، الذي لا يزال يرزح حتى الآن تحت نير الاستعمار .

وبعد ذلك القرار صدر قانون كريمو وهو القانون الذي منحت فرنسا بموجبه يهود الجزائر صفة المواطن الفرنسي ، لتكثير سواد الفرنسيين في البلاد . ثم أصدرت عدة مراسيم أصبح بموجبها المسلمون الجزائريون أبعد بمقتضاها عن دائرة الحق العام ، وجعلهم تحت التصرف المطلق لحاكم الجزائر وبذلك أصبح الحق في اعتقال كل جزائري يشك في ولائه للسيادة الفرنسية وطرده من البلاد ، وقد استحكم الأمر ، حتى منعت حكومة باريس نفسها في التدخل في أعمال الولاة، المراجعة للاضطهاد الأهلي من أجل توطيددعائم الحكم الفرنسي. ولكن الشعب الجزائري لم يقف ازاء هذا التصرف الجائر وتدخلها في الشؤون الدينية والتفرقة العنصرية ، فاندلعت الثورات في كل البلاد . وكان على رأس الثورة زعيم من الأشراف اسمه محمد المقراني ، كان أسلافه يعيشون مستقلين في اقليم (مجامة) حتى ان الأتراك كانوا يدفعون لهم اتاوة سنوية نظير حق المرورعبر أراضيهم. وقد شق المقرابي عصا الطاعة في وجه الفرنسيين ، بعد ان انضم اليه مأئة الف من رجال القبائل ، واكتسح الثوار الوطنيون قوات الفرنسيين أمامهم حتى وصلوا إلى مشارف العاصمة ، ولكنهم ردوا عنها في معركة استشهد أثناءها المقراني وكلف الفرنسيين عشرين الف قتيل ولكن وفاة الشهيد لم تفت في عضد الثوار ، فاستمر القتال في مختلف أقاليم الجزائر ، لا سيما المناطق الصحراوية . إلى أن

وقع شقيق المقراني وخليفته في الأسر عام ١٨٧٢ . ثم خلفه عمه الشيخ أبو مرزوق ، وقد استعمل الفرنسيون من صور الوحشية ما يثير الاحساس ويهيج النفوس ، وانتهت الثورة وحكم على ستة آلاف بالاعدام ، ونفي البعض ومن جملتهم الشيخ حداد ومحمد تزيز إلى جزيرة كاليدونيا وفرض على الجزائريين غرامة مالية قدرها ٣٦ مليون فرنك (وكان لها شأن في ذلك الوقت) ولما عجز الجزائريون عن الدفع استولوا علي أملاكهم وأجلوها عنها ثم اشتعلت ثورة أخرى بقيادة حمزة قائد أولاد سيدي الشيخ ، استمرت خمس سنوات ، استشهد القائد العام للثورة أثناءها . وفي سنة ١٨٨٢ قامت ثورة قبائل المهرانية بزعامة أبي عمامة المراكشي واستمرت إلى سنة ١٨٨٥، وإلى جانب الثورات كانت حركة المطالبة السلمية تنتظم من حين لآخر ، حتى انتهزوا فرصة ثورة العموم التي قامت بباريس ، فنظمت هيئة تطالب بمنح حقوق كاملة للجزائريين ، فأسسوا النيابات المالية ، على أن يكون ثلث أعضائها من الأهالي والثلثان من الفرنسيين . فهاجرت بعض القبائل سراً إلى المشرق . وقام أثناء ذلك النائب المالي الحاج عمار يطالب بالاصلاح القانوني لسنة ١٨٦٥ وغايته من ذلك تحقيق الجامعة الاسلامية ، واستمرت هذه الحالة حتى انتهاء حرب ١٩١٨ ، فتشكل وفد من الضباط الجزائريين ، برئاسة الأمير خالد يطالبون بتطبيق المبادىء علي الأمة الجزائرية ، فأقيل الأمير خالد من الجيش ، وعاد الجزائر إلى تأليف هيئة سماها كتلة الفتح ، وقامت حركة واسعة النطاق بحيث ترمي إلى أمرين : أولا ـ الحصول

للجزائريين على كامل الحقوق. وثانياً ـ اصلاح أحوالهم الاجتماعية ، والمطالبة بايقاف الهجرة الأجنبية إلى الجزائر ، وأسس الأمير جريدة دعاها (الاقدام) باللغتين العربية والفرنسية ، ولما سقطت وزارة بوانكاريه سنة ١٩٢٤ وانتصرت كتلة اليسار ، وسمح للامير خالد بالعودة لفرنسا ، حيث الف لجنة سماها لجنة أبناء شمال افريقيا ، ضمت عدداً من العمال ومصالي الحاج . ثم عاد إلى الاسكندرية ، ثم أخرج من مصر مكبلا بالحديد إلى سوريا حتى توفي سنة ١٩٣٦ . لم تخمد حركة الأمير خالد بوفاته بل تابعت سيرها سواء فيما يرجع إلى الجزائر أو مراكش ، فألفت (لجنة المؤتمر المغربي) لمعالجة السياسة الاقتصادية سنة ١٩٢٤ والغاء قانون الانديجينا . وفي سنة ١٩٣٣ عقدت جمعية نجم شمال افريقيا مؤتمراً اتخذت البرنامج الآتي :— (١) حرية الصحافة (٢) تعويض المجالس المالية في الجزائر (٣) دخول الجزائريين سائر الوظائف (٤) التعلم الاجباري باللغة العربية (٥) تطبيق الحقوق الاجتماعية (٦) جلاء جيوش الاحتلال وتأسيس جيش قوي (٧) الاستقلال الكامل للجزائر . فقام الاستعمار وحل هذه الجمعية والقى القبض على شخصياتها وزج بهم في السجون . وبعد ذلك نبغ عالم جزائري ديني مغربي كبير هو الشيخ عبدالحميد بن باديس حيث أسس جريدة اسبوعية هي الشهاب وفي سنة ١٩٢٨ أسس جمعية العلماء فانضم اليها جميع مثقفي القطر الجزائري ، وزاد أتباعها وقويت واتسعت ونشرت الدعوة إلى عدم الرضوخ للاستعمار الفرنسي ، الذي يرمي رسمياً إلى القضاء على الدعوة الاسلامية ، وعلى الدين الصحيح

واللغة العربية . على أن هذه الصبغة الدينية المحضة ، التي اتبعتها الجمعية ، جعلت في سياستها كثيراً من الغموض أحيانا . وفي سنة ١٩٣٦ نشرت الشهاب المقال التالي : « إننا نرى أن الأمة الجزائرية موجودة ومتكونة ، كسائر أمم الأرض وهي لاتزال حية ولم تزل حية ، ولها تاريخها اللامع ووحدتها الدينية واللغوية ولها ثقافتها وتقاليدها الحسنة ، كسائر أمم الدنيا ، والأمة الجزائرية ليست فرنسا ولن تصبح هي ومن المستحيل أن تصبح فرنسا حتى ولو جنسوها . » وهكذا تابعت الجمعية نشاطها في الداخل وجمعية نجم شمال افريقيا في الخارج من سنة ١٩٢٨ إلى ١٩٣٤ حيث حدث حادث مهم ذو أثر كبير في تطور الحركة التحررية ، وذلك أنه في اليوم الثالث من اغسطس عام ١٩٣٤ قام يهودي وسب المسلمين في مسجدهم فقاموا عليه وقتلوه ، وحصلت مجزرة رهيبة بين المسلمين واليهود ، قتل فيها كثير من كلا الطرفين ، وقام النواب الاستعماريون يقولون بوجوب احتلال البلاد عسكريا بجيش كاف موثوق به ، وأن يعطى الوالي العام الحق في تجنيد جميع المواطنين ، في حالة الخطر وهكذا أخذ الاستعمار ذلك الحادث ذريعة في تحطيم أية حركة تحررية ثم ظهرت إلى جانب العلماء المسلمين ، أشخاص جدد هم الدكتور بن جلول عباس فرحات ذو الشخصية الممتازة بثقافتها وذكائها — وهكذا اتحدت القوى الثلاث وهي : جمعية العلماء ونجم الشمال الافريقي والجماعات التحررية في مقاومة الأعداء الاستعماريين وتحطيم قوتهم الغاشمة . بعد انتصار الجبهة الوطنية الشعبية الفرنسية كان لتأسيس هذه المنظمة وانتصارها في الانتخابات

أثر كبير في نفوس الجزائريين ، إذ أيقنوا أن الفرنسيين هؤلاء سوف يطبقون مبادءهم (الخير ـ السلم ـ الحرية) فلا غرابة أن قسما كبيراً من الجزائريين انخدع بها . وليست هذه الفئة إلا نوع جديد آخر من أنواع الاستعمار . وانعقد المؤتمر الاسلامي في الجزائر برئاسة ابن جلول وجمعية العلماء وطالبوا بعدة حقوق منها : (١) نسخ قانون انديجينا (٢) الغاء قانون عدم الاعتراف باللغة العربية (٣) انتخاب حر نزيه . هذه هي المطالب التي طالب بها المؤتمر سنة ١٩٣٧ وهي قليلة الأهمية بالنسبة لما أحدثه المؤتمر من جو داخلي في البلاد . ثم عين المؤتمر وفداً قابل رئيس الوزراء الفرنسي ولكن ماذا كان جوابه ؟ الرفض طبعاً !! ولكن بصورة دبلوماسية استعمارية خبيثة . انتشر السلم بضعة أيام ولكن ما فتيء ان انفجر واشتعل بركان الثورة من جديد ، وأخذت الاضطرابات تعم المدن والمعامل الجزائرية تطالب بالأرض والمساواة في الحياة ، وأشرف هذه الأيام هوم ١١ يونيو في سيدي موسى و١٣ في بئر تونا و١٥ في حين ولاي ونخاجو وقوة الماء وبوخادم . وهكذا تطورت الحالة وأخذ المستعمرون يهاجمون الأهالي ويقتلونهم ، حتى بلغ عدد المضربين ٤٠ الف مضرب . وأخذت الثورة بالاشتعال من جديد ، حتى أخمدها الفرنسيون فترة بقوة الحديد والنار والدمار .

حزب الشعب

مصالي الحاج شخص ذوشهامة وغيرة وذكاء ، وقد ظل هذا الشخص

ملتجئا بجنيف ، حتى شمله العفو فعاد إلى وطنه ، وأسس حزبا سنة ١٩٣٧ وهو حزب الشعب الجزائري، فألقي القبض عليه ، ثم أطلق سراحه ثانية ، وأخذ يطالب بحقوق الجزائريين والعمل لتحرير الأمة الجزائرية ، حيث حاول نوعا ما في عودة نشاطه إلى الظهور ، فألقي القبض عليه سنة ١٩٣٩ بعد شهرين من إطلاق سراحه الثاني ، وحكم عليه بالسجن ستة عشر عاما بالأشغال الشاقة ونفي عشرين سنة وبغرامة ثلاثين مليون فرنك فرنسي .

حزب البيان

في سنة ١٩٣٦ الف الدكتور عباس فرحات ، حزب البيان الجزائري الذي بدأ عنيفاً في حركته بادىء ذي بدء بصورة لم تتمكن السلطات الفرنسية من تخفيف حدته بالرغم عن مختلف الوسائل التي استعملت من أجل ذلك ، وغاية الحزب الاستقلال الداخلي عن فرنسا علي الأقل ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، إذ أخذ الاستعمار يعتقل الشخصيات وكبار الزعماء الجزائريين ، والزج بهم فى السجون ، وأخذوا يدعونهم للتجنس بالقوة ، وأدت هذه الحركة إلى تجمع أنصار حزب الشعب ، ورجال العلماء ، وتأييدهم المطلق لحزب البيان الذي أخذ على عاتقه ، تزعم حركة التحرير .

الصحف العربية في الجزائر

كانت الصحف العربية الصادرة في الجزائر حتى سنة ١٩٣٠ لا تعدو

صحفاً تدعو إلى الاصلاح الاجتماعي والارشاد الديني ، وبالرغم عن كون عددها ضئيلا لا يتعدى عدد أصابع اليد الواحدة ، فان نصف هذا العدد مؤيداً للحكم الفرنسي ، بصورة غير مباشرة ، وفي طليعتها جريدة (النجاح) الصادرة بقسطنطينة لصاحبها مامي اسماعيل . وقد ماشت ثلاث صحف عربية فقط حركة الاصلاح والارشاد ، وفي مقدمتها مجلة (الشهاب) لسان حال جمعية العلماء باشراف العلامة الشيخ عبدالحميد بن باديس ، بمشاركة الاستاذ الشيخ محمد البشير الابراهيمي ، وكانت أعنف جريدة آنئذ هي (الاصلاح) لصاحبها العلامة الشيخ الطيب العقبي أصدرها بمدينة بسكرة ، وكان لهذه الصحف الأثر البعيد في ايقاظ الوعي ، وبعث الشعور الوطني ، والدعوة إلى التكتل والنضال . وكان أبرز العاملين في الحقل السياسي الجزائري في فرنسا يوم ذاك السادة : فضيل الورتلاني بباريس ، وعباس فرحات ، في الجزائر هذا في أوساط الطلبة ، أما في أوساط العمال فقد شمر الشيخ يحى بعلاوي عن ساعد الجد ، وأسس فروعا لجمعية العلماء المسلمين الجزائرايين في باريس وبوردو ومرسليا وسترسبورغ .

مأساة ٨ مايو سنة ١٩٤٥

شارك المسلمون الجزائريون في الدفاع عن الديمقراطية ، أثناء الحرب الأخيرة ، ومات منهم عشرة آلاف في صفوف الحلفاء ، وأبلوا البلاء الحسن في صد الهجوم النازي عن البلاد الاوربية ، وظنوا أن الانسانية الاوربية المزعومة لن تهدر لهم حقهم التام ، بعد الانتهاء من الحرب ولكن وقع ما

ليس في حسبانهم . في يوم ٨ مايو احتفلت فيه الأمم المتحدة كلها بعيد النصر ، وظن الجزائريون أن لهم الحق في الاحتفال ، إذ أن النصر لم يتم إلا على سواعدهم ، وهم أولى الناس بالاحتفال بذلك ، لهذا خرجوا بالمظاهرات الاحتفالية ، يحملون الأعلام الجزائرية (أي علم الأمير عبد القادر مؤسس فكرة استقلال الجزائر) ولكن المستعمر ، قاتله الله ساءه هذا المنظر فأخذ يهاجم الجماهير العزل من السلاح بالدبابات والطائرات، واسقطوا منهم الألوف من القتلى ، حتى بلغ عدد قتلى ذلك اليوم بـ٤٥ الف قتيل ما عدا الجرحى، لا ذنب لهم سوى مشاركتهم في الفرح للحرية والعدل، ومهما يكن فان هذه المأساة أثبتت للعالم عامة وللجزائريين خاصة، فظاعة المستعمر الفرنسى وكانت هذه تحت مسمع الأمم المتحدة ودولها المتمدينة . ومنذ ذلك تغيرت الحركة ، واختلفت اختلافا شديداً .

حلول معروضة

بالرغم من كل ما يدعى ، فقد انتهت الحرب تعلن تقهقر فرنسا في الجزائر . وازاء هذه الحقيقة الواقعة . أخذت الحكومة الفرنسية واحزابها يبحثون عن حل يوفق بين رغبتهم في الاحتفاظ بالجزائر ، وكان أمل هذه الحلول الارتباط بقصد تحالف يتساوى فيه المتعاقدان، حتى تتم انماء الشخصية الجزائرية ، ولكن فان كل الحلول التي عرضها الفرنسيون ، لم تكن سوى نوع جديد لمشروع (بلوم ــ فيوليث) الاستعماري . وكانت أهم هذه المشاريع هي :ــ (١) بأن تعتبر مجموعات الجزائريين ، تتمتع بشخصياتها

الدينية . وباستقلال نوعي وتنظيم خاص . (٢) السلطة التنفيذية في يد الوالي العام (٣) للجزائر سلطتها التشريعية يمثلها مجلس حكومي يتألف من ستة أعضاء (٤) تعيين ثلاثة منهم للولاية العامة (٥) يتألف المجلس النيابي الفرنسي من مائة وعشرين نائباً نصفهم من الفرنسيين ، أما مهمتهم فيها مصادقة الميزانية وحق الاقتراح على الضرائب والادعاءات فقط . وصادق المجلس الفرنسي على هذا المشروع الاستعماري سنة ١٩٤٣ في ٧ أغسطس بأغلبية ٣٢٢ صوتاً مع تغيب سائر النواب المسلمين الجزائريين. فمقابل هذا المشروع الاستعماري عرض حزب البيان الذي سمي (بالاتحاد الديمقراطي لمسلمي الجزائر) حلا جديداً يتطلب اعطاء الجزائر استقلالا ذاتياً بتكوين جمهورية جزائرية لها حكومتها وبرلمانها مع الارتباط الشكلي بالفرنسيين على أن يكون مؤقتاً ، ولكن رفض هذا المشروع الجزئي البسيط . وهكذا أخذت هذه الامور تتراكم وتلتهب تحت الرمال الرمضاء لتعلن للملأ الأعلى بأنها أحق بالحياة السعيده ، تحت ظل حكومة وطنية استقلالية تنشد العدالة الحقيقية لا المزعومة إلى أن يسر الله واشتعلت سنة ١٩٥٤ في ١٢ تشرين الأول الثورة الشاملة من أقصى البلاد إلى أقصاها تعلن عن اراداتها بكل جرأة ، وأصبح رجال الثورة هم الرجال الذين يمثلون حقيقة الشعب الجزائري أتم تمثيل إذ وجدوا لا مناص من استعمال القوة وهم يتكلمون بلسان الأمة الجزائرية ، وهي الامة الصغرى من الامة الاسلامية الكبيرة التي لا تعد ولا تحصى . وهكذا ظلت الثورة التحررية متماسكة منذ عام (١٩٥٤-١٩٥٧) إلى هذا العام ثورة قائمة بذاتها وروحها تتحدى الحديد والنار . وهي تشق طريقها ببسالة نحو النصر

والمجد. أن قوات جيش التحرير العاملة اليوم ، أصبحت تسيطر على أهم المواقع الاستراتيجية في البلاد ، هذا علاوة على امتداد سلطانها إلى السواحل والجبال والغابات والاحراج ، وإلى أقاصي الصحراء الكبرى وأطرافها ، من تونس شرقا إلى جبال الاطلس بمراكش غربا ، ومن شاطىء البحر الابيض المتوسط شمالا إلى تندوف جنوبا ، لقد دوخ جيش التحرير الجيوش الفرنسية الخمسة العاملة التي يزيد مجموعها على ٥٠٠ الف جندي وبالاضافة إلى هذه الجيوش تعززها وتشد من أزرها قوات بحرية وطائرات نفاثة ومقاتلة وعمودية ومدافع ثقيلة صحراوية وجبلية ، وهذه الحرب الدائرة في الجزائر ، تكلف فرنسا في كل يوم أكثر من مليون جنيه !! مع أن حرب الهند الصينية لم تتجاوز فيها نفقات فرنسا ٦٠٠ الف جنيه في اليوم الواحد ، وانتهت الحرب بهزيمة فرنسا وخروجها من الهند الصينية خائرة القوى ، تجر أذيال الخيبه والفشل الذريع . أن الوطنية الجزائرية التي حملت السلاح لقتال فرنسا ، على أرض الجزائر العربية قد كانت ولا تزال وستبقى رد فعل مثالي لشعب مظلوم محكومة بقوة النار والحديد ، فالجزائر لم تسفك دماء أبنائها ، وتبذل أرواحها رخيصة بسخاء كريم ، إلا لكي تبرهن الدنيا بأسرها على أن الجزائر لم تكن في يوم من الايام إلا بلداً عربياً حراً ، يفضل الموت على حياة الذل والفقر والجهل. فلا غرو أن تنطلق الجزائر من عقالها هذه الانطلاقة العربية المباركة لتلحق بالركب العربي ، فتسير في صفه عاملا قويا من عوامل الاستقرار والسيادة والسلام في عالمنا العربي ، أن مصير الجزائر مرتبط ارتباطاً كلياً بمصير الامة العربية ، فلا فرنسا ولا غيرها بقادر على تقرير هذا المصير .

الثورة وجيش التحرير

الثورة وجيش التحرير

كيف تم تكوين جيش من شعب مغلوب على أمره ، مثخن بالجراح تطارد فرنسا رجاله ، وتعتقل شبابه . وتشتت أبناءه ، وتبعدهم عن وطنهم . لقد تم هذا الجيش في تشرين الثاني ١٩٥٤ حيث أعان الجزائريون الجهاد المقدس لاسترداد حريتهم وتحرير بلادهم . بدأ الجهاد خمسة آلاف جندي جزائري اختفوا في الجبال ، وبعد اسبوع انضم اليهم ثلاثة آلاف وتوالى الانضمام إلى هذا الجيش حتى بلغ في شباط ١٩٥٦ عدد أفراده أربعين الفاً ، يسيطرون سيطرة تامة على نصف البلاد بمجموعها وعلى الأخص في المناطق الجبلية ، وولاية وهران ، وقطاع جبال تلمسان ووادي تانا وجبال سعيدة وغابات وأحراج ابوقير ورايلي إلى الشرق من مدينة مستغانم على الساحل أما في ولاية الجزائر فقد استحل الجيش هضابها وضواحيها إلى جنوبها ، وفي ولاية قسطنطينة وطد أقدامه علي جبال القبائل الكبرى ، وعلى جبال الهدنة ، وجبال العريس ، وامتد شمالا من ميناء بوجي إلى جبال بايور والمدن المجاورة ، وميناء عنابة (بون) فجبال مجيدة المتغلغلة سلسلتها في الحدود التونسية .

ويحارب جيش التحرير بأسلحة حديثة ، ويرتدي رجاله زيا موحداً ، ويرفعون علم الجزائر ذو النجمة الحمراء على كل شبر من أرض الجزائر . ويقود الجيش سبعة رجال محنكون دهاة . ومعظم رجال جيش التحرير من

أبناء قبائل جبلية ، وجنود حاربوا في الهند الصينية ، وضباط خاضوا معارك دموية ، وشباب يحملون أرقى الشهادات من معاهد أوربا . وأسلحة جيش التحرير أسلحة فرنسية ، استولى عليها وغنمها في المعارك التي تنشب باستمرار والباقي يستورد من البلاد الصديقة ، ولأول مرة منذ أكثر من مائة سنة يقوم في الجزائر حكم وطني يسانده الشعب ، ويقوم على رأس كل قطاع ، مفوض سياسي مدني يعمل إلى جانب قائد عسكري ، حيث يشرف الأول على الادارة والثاني يتولى الذود عن القطاع . ويؤازر الأثنين مجلس يمثل الأهالي ويتعاون على خير العمل ، ومنذ أن انتشر الحكم الوطني في الجزائر انعدمت الجرائم ، والمخالفات القانونية ، وارتفعت الروح المعنوية بين الجميع فهبوا لذلك متحدين يناضلون في بأس وبسالة . ويهدف جيش التحرير إلى تحقيق أهدافه التالية :

(١) اقرار دولة جزائرية ديمقراطية ذات سيادة ضمن اطار المبادىء الاسلامية

(٢) احترام جميع الحريات الأساسية دون أي ميزة باعتبار للسلالة أو العقيدة

(٣) التنظيف السياسي باعادة الحركة الوطنية الثورية إلى طريقها الحق ، والقضاء علي جميع بقايا الفساد التي كانت سبباً في حركته الحاضرة .

(٤) جمع وتنظيم جميع القوى السليمة في الشعب الجزائري للقضاء على النظام الاستعماري .

(٥) تحقيق وحدة الشمال الافريقي ضمن اطار رسالة الأمم المتحدة علي جميع البلاد التي تساعد عملها التحرري .

لقد ذهلت فرنسا من نضال الجزائر واصرارها على تحقيق أمانيها واستقلالها ، فلجأت إلى العنف والوحشية في أفضع صورها ، وارتكبت لذلك الجرائم التي تقشعر منها الأجسام ويندى لها جبين البشرية ، فمن إبادة قرى بالجملة ، وقتل شيوخ وأطفال وبقر بطون حوامل ، إلى اعدام شباب بمجرد الشبهة والتهمة ، ففي كل يوم تذبح القوات الفرنسية المئات من الجزائريين . والعمليات الحربية جارية في جميع أنحاء القطر ، تجر في ذيولها فظائع لا تماثلها فظائع الحروب الماضية ، ورغم هذا فالشعب الجزائري العظيم صامدة كالطود الأشم ، يحتشد أكثر فأكثر ، يناضل في بطولة جبارة ، وينهك قوى النصف مليون جندي من الجيش الفرنسي ، ويكبدهم خسائر فادحة لا تقدر في الأرواح والأموال .

الخاتمة

بدأ الاستعمار الفرنسي يترنح في الجزائر من جراء نضال الشعب الجزائري الذي آل على نفسه أن يتخلص منه في غضون عام ١٩٥٧ ، أن عقلية فرنسا المعتمدة على القتل والسلب والنهب في أوائل القرن التاسع عشر ، هي عقلية جامدة حمقاء ، لم تردها التجارب الكثيرة والنكبات المتتالية ، التي حلت في وطنها وفي مستعمراتها لا غروراً وعجرفة ، هذه العقلية السقيمة ، ركبها العناد ، وقادها (مركب النقص) المبني على حب العظمة منذ نجاح الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، قد تفسخت وانهارت أركانها ، وراح المستعمر الفرنسي يعتمد على النار والحديد ، ليستر ضعفه ويخمد ثورة الحق ، وقد

عجزت وزارات فرنسا السابقة ووزارة (جي موليه) التي استقالت منذ أيام عن حل قضية الجزائر ، حلا عادلا يمنح الجزائر استقلالا ذاتيا ، يحقق الحرية ويصون الكرامة ، فالجزائر جزء من الوطن العربي ، وسكانها أسرة من الأمة العربية ، ولن يتم للعرب كيان ، ما لم تحل قضية الجزائر ، فعلى حلها ينبثق نجاحهم ومن فشلها ضعف لسياستهم . وفي رأيي أن حل قضية الجزائر على أمرين لا ثالث لهما :—

١— الأمر الأول : سلمي يعتمد على مقاطعة العرب لفرنسا سياسياً وعلمياً واقتصاديا ، وشد أزر الجزائر والدعاية لها والدفاع عنها ، في المجالات الدولية والمحافل الأدبية .

٢— الأمر الثاني : حربي وهو يستند على مد يد العون والمساعدة للجزائريين بالمال والعتاد ، وتشجيع ثورة الجزائر ورجالها إلى الاستبسال والنضال حتى يتحقق النصر « ولينصرن الله من ينصره » والدلائل الواضحة عن كثب تشير إلى أن النصر على الأبواب ، والهزيمة موشكة بالأعداء أعداء الله والحق والانسانية .

انتهى

فهرس الكتـــاب